(إذا) الشرطية وأنماطها التعبيرية
دراســـــة بـــلاغـــيـــة
في الصحيحين

الدكتور

سرحان حسن سرحان محمد

مدرس البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية

فرع جامعة الأزهر بالزقازيق

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث بأسمى الآيات ، وأفصح اللغات وأبلغ الكلمات ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن سار على نهجه إلى يوم الدين.

وبعد:

فهذا بحث بعنوان: " إذا الشرطية وأنماطها التعبيرية دراسة بلاغية في الصحيحين ". وإنه لمن أعظم دواعي الشرف والفخر أن يكون بحثي هذا في رحاب روضة الرسول – ﷺ – وهذا من فضل الله – تعالى – الذي لا طاقة لنا بحمده وشكره.

وبلاغة رسول الله – ﷺ – لا تحتاج إلى بيان أو تعريف بقدر ما تحتاج إلى فهم وتحليل وتفسير! فهي البلاغة الشريفة التي ولدت وترعرعت وأثمرت في أحضان البلاغة الأم: بلاغة القرآن الكريم. ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾[1]. والتي هي المثل الأعلى للبلاغة العربية، وإذا كان كلام الله هو البيان المعجز فإن كلام الرسول مستمد من مشكاة هذا البيان ، وإذا كان البلاغ صفة كل رسول فإن البلاغة هي السمة الغالبة على سنة رسولنا الكريم – ﷺ –.

وليس يخفى ما بذله الباحثون قديمًا وحديثًا فى مجال البلاغة النبوية إلا أنها لم توف إلى تلك البلاغة الراقية المفعمة بالأسرار والدقائق واللطائف حقها من الدرس والتحليل ؛ لذا أردت أن أضيف بهذا البحث مثقال ذرة إلى تلك النفائس والدرر البلاغية ، وذلك من خلال دراسة وتحليل الأنماط التعبيرية لجملة (إذا) الشرطية في الصحيحين ، حيث وردت (إذا) الشرطية في مواضع كثيرة من الأحاديث النبوية وهذا ما شدني إلى دراستها واستنباط ما بها من أسرار.

١- النجم: (٣ – ٤).

ومن المعروف أن لـــ(إذا) أهمية من بين أدوات الشرط ، حيث ترد في مواضـــع الشرط الواجب أي: الشرط اليقيني الذي لا بد أن يتحقق ، أما (إن) فإنهـــا تكـــون فـــي مواضع الشك والظن، قال الإمام عبد القاهر الجرجاني: " إن الجزم يكون فـــي المعـــاني التي ليست بواجبة الوجود لما تقدم من أن موضوع المجازاة بـــ " إن" التي هي أم الباب ، وأصله على أن يكون الفعل المجازى به مما يترجح بين أن يوجد وأن لا يوجد ، فأما ما كان واجب الوجود ، فلا يجوز " إن" ولا الأسماء الجازمة فيه ... وأما (إذا) فيجازى بها الواجب الوجود ، كقولك: إذا طلعت الشمس خرجت ، وفيما علم على الجملـــة أنـــه كائن." [١] ويقول الخطيب القزويني: " والأصل في إذا أن يكون الشرط فيهـــا مقطوعًـــا بوقوعه." [٢]

هذا ومن خلال القراءة في الصحيحين تكشف لي أن جملة (إذا) الشـــرطية قـــد وردت في عدة أنماط تعبيرية تتفاوت ما بين الكثرة والقلة ، كان الغالب عليهـــا الفعـــل الماضي ، وقليلاً ما يأتي بعدها الفعل المضارع ، حيث لم تدخل على الفعل المضارع إلا في موضعين اثنين في صحيح البخاري ، وفي موضع واحد في صحيح مســـلم ، وقـــد لاحظ ابن هشام ذلك حين قال: " يكون الفعل بعدها ماضيًا كثيرًا ومضارعًا دون ذلك." [٣]

ومن ثمّ كان أشيع الأنماط ورودًا في الحديث هو مجيء جملتي الشرط وجوابـــه بلفظ الماضي ، ويليه مجيء جملة الشرط بلفظ الماضى وجوابه جملة طلبيـــة ، وأقـــل الأنماط هو مجيء جملة الشرط بلفظ المضارع.

١- المقتصد في شرح الإيضاح ، عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق: د. كاظم بحر المرجاني ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، الجمهورية العراقية ، ١٩٨٢م: جـــ/٢ ص ,١١٩

٢- الإيضاح في علوم البلاغة ، للخطيب القزويني ، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي ، طبعة ثالثة ، ط. دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٣٩١ هـــ ١٩٧١م : جـــ/١ ص ,٢١٦

٣- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، لابن هشام: تحقيق: مازن المبارك ، محمد حمد الله ، الطبعة السادسة ، ط. دار الفكر بيروت ١٩٨٥م: جـــ/١ ص ,٩٧

ولذا فقد راعيت ترتيبها حسب غزارة ورودها في الحديث ؛ لأن كثرة ورود النمط له دلالة في تعيين خصائص لغة الحديث الشريف ، ويسهم في بيان المعنى وعلاقته بالدلالة العامة للشرط في الحديث الشريف. وهناك عدة أسباب دفعتني للكتابة في هذا الموضوع:

(١) أن الجملة الشرطية في الحديث الشريف جملة حاضرة منتشرة ، وربما يعد الأسلوب الشرطي من سمات لغة الحديث النبوي وخصائصه المميزة.

(٢) أن الجملة الشرطية جملة مستقلة تؤدي معنًى هامًا واضحًا وهو تعليق معنى بمعنى آخر وربطه به ، ومن ثم يتعلق بها أغراض بلاغية ويستنبط منها أسرار ينبغي لنا الوقوف عليها.

(٣) كثرة ورود (إذا) في الصحيحين حيث وردت في ثلاثمائة وست وتسعين موضعًا : مائتان وسبعة في صحيح البخاري ومائة وتسع وثمانون في صحيح مسلم ، مما استرعى انتباهي ولفت نظري إليها.

وتقتصر الدراسة على تحليل لبعض النماذج التي يتبين من خلالها الفروق الدلالية ؛ وذلك للكشف عن بعض أسرارها البلاغية من خلال الأحاديث النبوية.

ولذا فقد حاولت جاهدًا – بقدر ما وهبني الله تعالى – من وعي ببلاغة النبوة – أن أكشف قدرًا يسيرًا من خصائص بلاغته المتميزة – ﷺ – والمتمثلة في (إذا) الشرطية بأنماطها المتعددة ، وذلك من خلال منهج وصفي تحليلي يعتمد على تذوق ألفاظه الشريفة ، وبيان معانيها ومراميها ، وكشف أسرارها ومضمراتها ، وكذا الوقوف على دلالات (إذا) الشرطية بأنماطها التعبيرية المختلفة ومدى ملائمتها لمقاماتها المستعملة فيها ، مستعينًا في هذا بعد الله – جلت قدرته – ببعض النصوص المضيئة تارة وباجتهادي تارة أخرى.

وتقوم الدراسة على مقدمة وفصلين وأربعة مباحث وخاتمة:

المقدمة: ذكرت فيها أهمية الموضوع ودوافعه وخطته ومنهجه.

الفصل الأول: خصصته لـــ(إذا) الشرطية وجملة شرطها بلفظ الماضي.

ويضم هذا الفصل مبحثين:

المبحث الأول: (إذا) وجملتا الشرط وجوابه بلفظ الماضي.

المبحث الثاني: (إذا) الشرطية وجملة الشرط فعل ماضي والجواب جملة طلبية.

الفصل الثاني: جعلته لـــ(إذا) وجملة فعل الشرط بلفظ المضارع.

ويحتوي على مبحثين:

المبحث الأول: (إذا) وجملة الشرط فعل مضارع ، وجملة الجواب فعل ماضي.

المبحث الثاني: (إذا) وجملة الشرط فعل مضارع ، وجملة الجواب فعل أمر.

وتأتي بعد ذلك خاتمة البحث ، وفيها ذكر لأهم النتـــائج المســـتفادة مـــن هـــذه الدراسة ، ثم يأتي في النهاية ثبت بالمصادر والمراجع التي أفادت منها تلكم الدراسة.

وبعد فما ورد بهذه المحاولة من توفيق وصواب فمن فضل الله – عز وجـــل – وما كان بها من خطأ وسوء فهم وضعف استنباط فأسأله – سبحانه – العفو والرشـــاد والتوفيق والسداد.

﴿ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ هود: (٨٨).

الباحث

د/ سرحان حسن سرحان

المبحث الأول:

(إذا) وجملتا الشرط وجوابه بلفظ الماضي.

هذا النمط أشيع أنماط إذا الشرطية في الحديث الشريف ، وقد تنوعت جملة الجواب فيه بين الفعل الماضي ، والفعل الماضي المبني للمجهول ، والفعل الماضي الناسخ ، والفعل الماضي المؤكد بـ(قد). كما تنوعت جملة الشرط فيه بين الفعل الماضي ، والفعل الماضي المبني للمجهول ، وهكذا فإنه يتبع هذا النمط الفروع التالية:

الفرع الأول: (إذا) فعل ماضي ، فعل ماضي.

ورد هذا النمط التعبيري في مواطن كثيرة في الصحيحين ، وهو أكثر فروع هذا النمط وروداً في الحديث النبوي ، ونقف على نموذجين لهذا الفرع لجملة (إذا) الشرطية بالتحليل نتبين من خلالهما بلاغة الجملة الشرطية في بيان علاقة القلب بالجسد ، وأهمية صلاحه وصلاح المجتمع وتماسكه ، وذلك في سياق بيان الرسول – ﷺ – للحلال والحرام ووضع حدود فاصلة بينهما ، ورسم صورة للمجتمع المسلم المثالى الذي ينشده الرسول – ﷺ –.

الورع وصورة المجتمع المثالي

النموذج الأول:

الحلال والحرام من أهم الأمور التي حرص الرسول – ﷺ – على بيانها ، فوضع حدوداً فاصلة بينهما تركت الحلال بيناً وطريق الحرام بيناً ، ثم فصل أمر الشبهات التي يحتار الناس فيها ، وما ينبغي على المؤمن تجاهها من الاستبراء للدين والعرض وخطر الوقوع في المحارم، وبيان الحمى الأعظم حمى الله ، وعلاقة القلب بالجسد ،وذلك في الحديث الذي رواه البخاري عن النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – يَقُولُ: " الحَلاَلُ بَيِّنٌ، وَالحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى المُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ: كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلاَ إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ "[1]

١– صحيح البخاري: جـ/١ ص ٢٣. كتاب الإيمان – باب فضل من استبرأ لدينه – حديث رقم ٥٢,

ويلحظ أن النسق البلاغي النبوي قد جاء في قمة الدقة والإصابة – لا سيما – في بيان علاقة القلب بالجسد وأهمية صلاحه.

وثمة مناسبة تُلحظ من حديث الرسول – ﷺ – عن القلب وعلاقته بالجسد إثر حديثه عن حدود الله ؛ لأن القلوب محل استقبال الأمر الإلهي ، ومنها صدور ردود الأفعال سلبًا أو إيجابًا، وهي محل النزاع بين الخير والشر ، وموطن الصراع بين الأهواء وتجاذب الرغبات ، ومنبت الأحلام والآمال. وتكشف البلاغة النبوية في صياغة الجملة الشرطية عن أهمية هذا الأمر ، وذلك من خلال قوله – ﷺ – : (أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً ...) فقوله: " (ألا) حرف تنبيه على صحة ما بعدها مع ما توحي به من أهمية ما يليها." [١] وتكرارها في الحديث يؤكد هذه الأهمية ، وينادي بضرورة اليقظة والوعي من المخاطبين. وفي دخولها على القلب مرتين (أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً... أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ) ضرب من التشويق والإبهام.

وفي التركيب البلاغي في هذه الجملة – من العطف والتوكيد بـ(إنَّ) – ما يعكس عناية المتكلم بالخبر واهتمامه به ورغبته في نقل هذه العناية وهذا الاهتمام إلى نفس المخاطب.

وفي تقديم الجار والمجرور (في الجسد) على (مضغة) تخصيص يشير إلى مضاعفة الانتباه إلى هذا العضو العجيب ، فهو على علو منزلته ليس غريبًا ولا بعيدًا منفصلاً ينشد خارج بناء الجسد ، كما لا يخفى إشارة تنكير (مضغة) إلى تقليلها تعجبًا من أمرها ، فهي مضغة صغيرة في الجسم بها يتقرر صلاحه أو فساده ، ويرتبط مصيره بمصيرها ، والأسلوب بهذا النسق البلاغي الفريد يثير الوجدان ، ويشوق النفوس لمتابعة الخبر.

ويأتي النمط التعبيري بـ(إذا) الشرطية ليكمل الكلام ويروي غلة المتشوقين لمتابعة الخبر: (إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ). قال الإمام العيني: قوله: (إِذَا صَلَحَتْ) أي: " المضغة وهي القلب، وكلمة (إذا) ههنا بمعنى: (إنْ) ؛ لأن مدخول (إذا) لا بد أن يكون متحقق الوقوع ، وههنا الصلاح غير متحقق لاحتمال الفساد والقرينة على ذلك ذكر المقابل." [٢]

فالعيني يشير إلى أن (إذا) التي تفيد تحقق وقوع الشرط غالبًا لم يقصد بها في هذا البيان الشريف هذا المعنى ، وإنما هي مستعارة بمعنى (إنْ) التي تفيد الشك وعدم الجزم

١– المجازات النبوية للشريف الرضي – تحقيق: طه محمد الزين: ص ١٣٨ ، ط. مؤسسة الحلبي – القاهرة.

٢– عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني ، مراجعة: صدقي جميل العطار طبعة أولى ١٤١٨هـ ١٩٩٨م، ط. دار الفكر : جـ/١ ص ٤٣٧,

بوقوع الشرط، وذلك أن صلاح القلب المترتب عليه صلاح الجسد كله غير متحقق لاحتمال فساده ، الذي هو مقابل للصلاح ، والذي جاء قرينة صارفة عن إرادة المعنى الحقيقي لـ(إذا) إلى معنى (إنْ). يقول الخطيب: " وقد تستعمل (إن) في مقام القطع بوقوع الشرط لنكتة." [١]

وكما تستعمل (إن) في مقام اليقين تستعمل (إذا) في مقام الشك كـ(إنْ) ، وقد أشار الإمام ابن حجر إلى هذا الاستعمال عند شرحه لهذا الحديث بقوله: " (إذا صلحت ... إذا فسدت) التعبير بـ(إذا) لتحقق الوقوع غالبًا ، وقد تأتي بمعنى (إن) كما هنا." [٢] فكم من قلوب لا تحمل حقدًا ولا تنطوي على غل لأحد من الناس ، ومع ذلك فأجسادها لا تؤدي ما افترض الله عليها ، وكم من قلوب تمتلئ موجدة على خلق الله ، ومع هذا ترى أجسادها مترددة على المساجد ، وتشد الرحال إلى البيت الحرام.

هذا ولا يخلو التعبير النبوي الشريف بـ(إذا) دون (إن) من سر بلاغي يكمن في شدة حرصه – ﷺ – على تحقق صلاح وسلامة وطهارة قلوب أمته ، فاستخدام (إذا) التي يكون مدخولها متحقق الوقوع ؛ ليؤكد ارتباط مصير جميع أعضاء البدن بالقلب صلاحًا وفسادًا.

كما أن في التعبير بـ(إذا) إفادة أن المضغة مهيئة للصلاح ، بل إن أساسها هو الصلاح، والفساد طارئ عليها ؛ ولهذا ترى التعبير النبوي قد آثر (صلحت) على " أصلحت " ؛ لأن صلاحها ذاتي نابع منها فالقلب محل الإيمان بالله – تعالى – ومنه تصدر التوجيهات إلى جميع أعضاء الجسم بتنفيذ أوامر الله واجتناب نواهيه ؛ ولهذا يقول – تعالى – ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ...﴾ [٣]. وفي مجيء جملة الشرط والجواب بصيغة الماضي في قوله: (إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ) مقابلة بلاغية بين جملتي الشرط وجوابهما توضح المعنى وتؤكده ، وتضع صورة القلب الصالح وأعضائه إزاء صورة القلب الفاسد وجوارحه ، حتى تبين حُسن الحسن بجوار قُبح القبيح.

ويقول ابن رجب الحنبلي موضحًا هذا المعنى بكلام في غاية الروعة والدقة في الفهم: "وقوله – ﷺ – (أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ) فيه إشارة إلى أن صلاح حركات العبد بجوارحه واجتناب

٣- الإيضاح للخطيب القزويني: جـ/١ ص ٢١٩,

١- فتح البارى في شرح صحيح البخاري للإمام/ ابن حجر العسقلاني ، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩٢م ، ط. دار الغد العربي ، جـ/٤ ص ١٣٥,

٢- الرعد: من الآية (١١).

المحرمات ، واتقائه للشبهات بحسب صلاح حركات القلب ، فإذا كان قلبه سليمًا ليس فيه إلا محبة الله ومحبة ما يحبه الله وخشية الوقوع فيما يكرهه صلحت حركات الجوارح كلها ، ونشأ عن ذلك اجتناب المحرمات كلها ، وتوقي الشبهات حذرًا من الوقوع في المحرمات. وإن كان القلب فاسدًا قد استولى عليه اتباع الهوى وطلب ما يحبه – ولو كرهه الله – فسدت حركات الجوارح كلها وانبعث إلى كل المعاصي والمشتبهات بحسب اتباع هوى القلب." [١]

ومن ثم فقد جاءت جملة الختام (أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ) تقرر تقريرًا مباشرًا حقيقة مبعث الخطأ والصواب ، حتى يعمل الإنسان على صلاح قلبه ويتعهده بما يحفظه من ذكر وقراءة قرآن ودعاء حسن وتوكل على الله. وهو بذلك يعالج القضية من جذورها ويصل إلى لبها وهو القلب الذي بصلاحه يصلح الجسد كله ، بل لا أكون مبالغًا إن قلت: إن صلاح القلب هو صلاح المجتمع كله ، أليس المجتمع مجموعة أجساد داخل كل منها قلب إن صلح صلحت ؟!.

النموذج الثاني:

وبعد أن بين لنا النمط التعبيري لـ(إذا) الشرطية الورع متمثلاً في صلاح القلب والفرد ، مفصحًا عن الأسرار البلاغية في علاقة القلب بالجسد ، فها هي البلاغة النبوية تصدح ببيان صلاح المجتمع وتماسكه ، وترسم صورة مثالية للمجتمع المسلم ، متمثلة في التواد والتراحم والتعاطف ، وذلك من خلال تصوير بلاغي دقيق وتعبير نبوي فريد لهذا المعنى في الحديث الذي رواه الإمام مسلم عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – ﷺ –: " مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى"[٢]

يبين الرسول – ﷺ – في هذا البيان النبوي الشريف طبيعة الترابط الشديد بين المؤمنين بالمشاعر النبيلة ، والتفاعل الإيجابي الذي يجعل المجتمع كفرد واحد مهما ترامت أطرافه يظل شديد الإحساس بكل أجزائه.

١– جامع العلوم والحكم ، ابن رجب الحنبلي ، تحقيق: د/ محمد بكر إسماعيل ، ط. الحلبي ، مكتبة دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٣٦هـ ١٩١٨م : ص ,٩٥

٢– صحيح مسلم: جـ/١٦ ص ١١٩ – كتاب البر والصلة – باب تراحم المؤمين وتعاطفهم وتعاضدهم – حديث رقم ٢٥٨٦ – ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي – ط/ دار إحياء التراث العربي، سنة ١٣٧٤ هـ ، ١٩٥٥م.

ومن خلال النسق التعبيري لـ(إذا) الشرطية في الحديث النبوي تتجلى لنا رؤية الرسول – ﷺ – للمجتمع المسلم ، وكيف يكون صالحًا متماسكًا. فقد أبرز التعبير بـ(إذا) الشرطية في الحديث غاية كمال المشبه به ؛ حيث ورد الحديث الشريف في صورة التشبيه التمثيلي ، شبه فيه حال المؤمنين في شدة الإحساس بينهم وتأثر بعضهم ببعض ، وتفاعلهم وتجاوبهم مع بعضهم بحال أعضاء الجسد في الجسد إذا اشتكى عضو تألم الجميع بألمه وحمُّو بِحُمَّاه ، ووجه الشبه قوة الاتصال ورقة الشعور وسرعة التفاعل. وهذا ما أفصحت عنه جملة الشرط بدقة ترتيبها واختيار مفرداتها ؛ حيث آثر البيان النبوي أداة الشرط (إذا) التي تدل على تحقق الوقوع ، وكذلك اختيار جملة الشرط وجوابها بلفظ الماضي ، في قوله – ﷺ – : (إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى) أي: " دعا بعضه بعضًا إلى المشاركة في ذلك." [١]

ويلحظ في جملة (إذا) الشرطية في البيان النبوي مجانسة جواب الشرط (تَدَاعَى) لفعل الشرط (اشْتَكَى) في زمن الفعل أو الماضوية – مع إمكان أن يكون مضارعًا – ؛ وذلك ليكون أدل على هذه الصفات ، لما فيه من إشعار بالمبادرة والإسراع بالنجدة للاقتران الزمني بين الشكوى والتداعي ، ولما في الماضي من تحقق الوقوع. ولا يخفى ما في جواب الشرط (تَدَاعَى) من الاستعارة المكنية التي تصور ما يجب أن يكون عليه المؤمنون من النجدة لإخوانهم ، حيث شبه أعضاء الجسم بإنسان يستغيث ويطلب النجدة لإنقاذ أصحابه. " وألطف اللطف في التعبير وأدق الدقة ما يحمله لفظ (تَدَاعَى) من عجيب المعنى ، فهو يخيل إليك أن أعضاء الجسد قد هبَّت للنجدة ، يدعو بعضها بعضًا ، وإنما هو الجواب العملي المسعف والمساعد: السهر والحمى." [٢]

وعليه فإن استخدام الرسول – ﷺ – كلمة (تداعى) في جواب الشرط إشارة إلى التجاوب الوجداني والفعلي للمؤمن مع أخيه في كل زمان ومكان ، وحث المؤمنين على ذلك ، ليس هذا وفقط ، بل إن التعبير النبوي بقوله: (تَدَاعَى) يفيد أن المؤمن لا يجب عليه نصرة أخيه المؤمن بقلبه وجوارحه فحسب ، بل يدعو غيره من المؤمنين لنصرته ، حتى تكون

١– شرح صحيح مسلم للإمام النووي (ت: ٦٧٦ هـ) تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد: جـ/١١ ص ١١٩ ، طبعة المكتبة التوفيقية.

٢– الحديث النبوي من الوجهة البلاغية ، د/ عز الدين علي السيد ، ط/ الأولى ، ١٤٠٤ هـ ، ١٩٨٤ م ، ط. دار إقرأ – بيروت ، ص ,١٦١

المعونة أفعل وأقوى؛ ردعًا لكل طامع في فرد مؤمن أو قطر مسلم ، حيث يعلم أن الأمة كلها خلفه تنصره وتذب عنه، " فإن أظهر المظاهر المرشدة إلى الإيمان بذل المؤمن وده ورحمته وعطفه للمؤمنين؛ تألمًا بما يؤلمهم وتداعيًا لما يصيبهم ، فمن فقد هذا التداعى فلم تعطفه العواطف ، ولم تبكه البواكي ، فليتحسس قلبه وليسأل نفسه: أين أنا من دلائل الإيمان؟." [١]

وفي تقديم الجار والمجرور على الفاعل في قوله: (تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ) تخصيص يوجه الفعل ويؤكد النية ، أضف إلى ذلك التعبير النبوي بلفظ (سَائِرُ) الذي يفيد نهضة الجميع دون استثناء ، والذي يؤكد عزة المؤمن وفاعلية الإيمان في القلوب ودقة الترابط الذي لا يستثني فردًا من واجب الإغاثة ، ثم انظر روعة البلاغة النبوية في التناسب بين (السهر) الذي يفيد التجاوب الشعوري بين الأعضاء و(الحمى) التي تشير إلى التجاوب الفعلي بعد التجاوب الشعوري ؛ وفيه دعوة نبوية في قمة البلاغة إلى ضرورة التجاوب الفعّال بين المؤمنين ، لا مجرد التأثر الوجداني أو الكلام دون فِعال ، والأمر على ذلك فيما يتعلق بالأقطار المسلمة التي تمثل أعضاء الأمة الإسلامية ، فكل قطر هو عضو في جسد الأمة الإسلامية له دور يجب أن يؤديه في هذا الإطار ، وله حقوق على الأمة حتى لا تتركه فريسة لطامع يحتذه من جسد الأمة ثم يفرغ لغيره. وهكذا فقد أظهرت البلاغة النبوية من خلال جملة (إذا) الشرطية أن أي وباء يصيب عضوًا يمكن أن ينتشر ويصيب بقية الأعضاء ؛ لذلك تجد سرعة مقاومة الوباء لحماية بقية الأعضاء ، وكذا الأمر في المجتمعات المسلمة ، حيث يجب مقاومة كل ما من شأنه أن يضر بالأمة وسلامتها من بدايته قبل أن ينتشر.

والرسول – ﷺ – إذ يختار أعضاء الجسد الواحد ليشبه بها دقة وحساسية ترابط المؤمنين إنما يختار في ذلك النموذج الأعلى في شدة الترابط وسرعة التجاوب الذي يجمع المؤمنين ويحقق عزتهم ، ولحملهم على تزكية النفس ، وإرهاف الحس ، ويقظة الروح لكل من يجمع الإيمان بينهم ، وليرشدهم إلى أن مجتمعهم بخير ، وأمتهم بانتصار ما كانوا مجتمعين لا يتصورون أنفسهم أفرادًا في انفصال شأن واستقلال حياة ، وإنما يرونها أعضاء جسم واحد. من خلال كونهم أعضاء لجسد واحد يمنعون عنها كل أشكال الإيذاء ، ويغيروا كل أشكال المنكر ؛ حتى يبقى المجتمع طاهرًا نقيًا ، وهذا دور المصلحين في كل زمان ومكان ، وبه يصبح مجتمعًا صالحًا متماسكًا. ويكون صورة مثلى لغيره من المجتمعات وهذا ما أراده الرسول – ﷺ – وأكده النمط التعبيري بـ(إذا) الشرطية البلاغية.

٣- السابق: ص ,١٦٠

الفرع الثاني: (إذا) فعل ماضي ، فعل ماضي مبني للمجهول.

ورد هذا النمط التعبيري في أحاديث كثيرة ، نقف على نموذج منها بالتحليل ، لنتبين من خلاله أسرار البلاغة النبوية في تركيب جملة (إذا) الشرطية وجوابها في صيغة الماضي المبني للمجهول ، وذلك في الحديث الذي يبين فيه الرسول – ﷺ – السمات الرفيعة والعلامات العظيمة التي ينفرد بها شهر رمضان المعظم من بين شهور السنة كلها. فعن أبي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ –: " إِذَا دَخَلَ شَهْرُ رَمَضَانَ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ، وَسُلْسِلَتِ الشَّيَاطِينُ "[١]

هذا الحديث يبين أهمية هذا الشهر الفضيل ؛ ولذا بُني على أسلوب الشرط ، وآثر الرسول – ﷺ – أداة الشرط (إذا) دون (إن) للجزم بوقوع الشرط ، كما جاء اختيار النبي – ﷺ – لفعل الشرط (دخل) بلفظ الماضي في غاية الملاءمة لمقام الكلام ؛ لدلالته على تحقق وقوع الفعل ، وتيقن حدوث علاماته وسماته. وقد تمثلت هذه العلامات وتلك السمات في جواب الشرط: (فُتِّحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ، وَسُلْسِلَتِ الشَّيَاطِينُ).

وأول تلك العلامات أن أبواب السماء تفتح بالخيرات والبركات ، وقد تجلت تلك العلامة في مجيء جواب الشرط بصيغة الفعل الماضي المبني للمجهول في قوله – ﷺ – : (فُتِّحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ) وفي بناء الفعل الماضي المتصل بتاء التأنيث للمجهول (فُتِّحَتْ) لون من الوجازة والاختصار في الكلام ، " وسكت عن ذكر الفاعل للعلم به."[٢] وهم الملائكة بإذن من الله – العلى القدير – أي: فتحت الملائكة أبواب السماء.

وفي ورود الفعل بالتشديد (فُتِّحَتْ) إشارة إلى فتح أبواب السماء كلها فلم يغلق باب منها قط ؛ مبالغة في نزول الرحمات والخيرات والبركات على الصائمين والصائمات. وعليه فإن في قوله – ﷺ – : (فُتِّحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ) كناية عن صفة وهي تنزل الرحمة وإزالة الغلّ عن مصاعد أعمال العباد تارة ببذل التوفيق وأخرى بحسن القبول ، وقد أبرزت هذه الكناية ما

١– صحيح البخاري: كتاب الصوم ، باب هل يقال رمضان أو شهر رمضان – رقم الحديث: ١٨٩٩ وأخرجه مسلم في الصيام – باب فضل شهر رمضان – رقم الحديث: ١٠٧٩,

٢– دليل الفالحين ، لمحمد بن علان ، دار الريان للتراث ، ط. أولى ، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م : جـ/٤ ص ٣٤,

تفيض به السماء من خيرات ورحمات على عباد الله – تعالى – لا سيما في شهر رمضان المبارك.

ويلحظ في هذه الكناية مدى التلازم والتلاحم بين الموصوف والصفة فالسماء أبدًا مستودع الخير والبركات والأرزاق .. يقول الله – عز وجل – : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ... ﴾[١] وكذلك ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾[٢].

هذا وقد ورد قوله: (فُتِّحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ) بروايتين: الأولى: (أبواب الجنة) والثانية: (أبواب الرحمة) ، ولا تعارض في ذلك ، فأبواب السماء يصعد منها إلى الجنة ؛ لأنها فوق السماء وسقفها عرش الرحمن ، وأبواب الرحمة تطلق على أبواب الجنة ؛ لقول النبي – ﷺ – في الحديث الصحيح: " احتجت الجنة والنار ..." الحديث ، وفيه: " وقال الله للجنة أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي ..."[٣]. وثمة فائدة من فتح أبواب السماء أشار إليها ابن حجر في الفتح وهي: إعلام الملائكة بفضل الصيام ومنزلة الصائمين عند ربهم وحث الصائمين على الاجتهاد في الطاعات لنيل المزيد من الرحمات.[٤]

والعلامة الثانية: غلق أبواب جهنم ؛ " لأن الصوم جنّة ، فتغلق أبوابها بما قطع عنهم من المعاصي ، وترك الأعمال السيئة المستوجبة للنار ، ولقلة ما يؤاخذ الله العباد بأعمالهم السيئة ، ليستنفذ منها ببركة الشهر ويهب المسيء للمحسن ، ويجاوز عن السيئات."[٥] وتمثل ذلك في الجملة المعطوفة على جملة جواب الشرط وهي قوله: (وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ) ببناء الفعل الماضي للمجهول (غُلِّقَتْ) مما أضفى على الكلام مزيدًا من الإيجاز والاختصار ، فالأصل: غلقت الملائكة أبواب النار ، وذلك بتفويض من الله – تعالى – .

ويلحظ مجيء الفعل (غُلِّقَتْ) بالتشديد ، للمبالغة في إغلاق أبواب جهنم دون استثناء ، فلم يفتح باب منها أبدًا ، تكرمًا وتلطفًا من الله – تعالى – على عباده الصائمين. وفي قوله –

٣- الأعراف: من الآية (٩٦).

٤- الذاريات: الآية (٢٢).

١- عمدة القاري: جـ/١٠ ص ,٢٧٠

٢- ينظر: فتح الباري: جـ٤ ص ,١٣٧

٣- عمدة القاري: جـ/١٠ ص ,٢٧٠

ﷺ -: (غُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ) " كناية عن صفة ، وهي تنزه أنفس الصوام عن رجس الفواحش والتخلص من البواعث على المعاصي بقمع الشهوات." [١]

ومن ثم فقد أوضحت هذه الكناية الأسباب التي من أجلها تغلق أبواب جهنم عند دخول شهر رمضان ، وهي ابتعاد الصائمين عن رجس الفواحش ، واجتنابهم البواعث على ارتكاب المعاصي ، وذلك بقمعهم لشهواتهم. فجهنم وبئس المصير لم يجعلها الله – عز وجل – إلا لأهل المعاصي والفواحش. ولا يخفى ما بين جملة جواب الشرط برواية (فتحت أبواب الجنة) والجملة المعطوفة عليها وهي قوله: (وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ) من المقابلة الحسنة التي تعين على تجلية الحقائق وإبراز معانيها ، حيث أظهرت هذه المقابلة المعنى واضحًا مؤكدًا في العبارتين ، وحددت مدى الفرق بينهما تحديدًا قويًا ، فشتان بين الفتح والغلق ، والجنة وجهنم.

والعلامة الرمضانية الثالثة تمثلت في الجملة المعطوفة على جملة جواب الشرط وهي قوله – ﷺ -: (وَسُلْسِلَتِ الشَّيَاطِينُ) أي: " أن الشياطين يقل إغواؤهم ، فيصيرون كالمصفدين."[٢] أي: المقيدين. فيعجزون عن إغواء المؤمنين وإيذائهم وافتنانهم ؛ " وذلك لأنه إذا دخل رمضان ، واشتغل الناس بالصوم وانكسرت فيهم القوة الحيوانية التي هي مبدأ الشهوة والغضب الداعيين إلى أنواع الفسوق وفنون المعاصي ، وصفت أذهانهم واشتغلت قرائحهم وصارت نفوسهم كالمرائي المتقابلة المتحاكية ، وتنبعث من قواهم العقلية داعية إلى الطاعات ناهية عن المعاصي فتجعلهم مجمعين على وظائف العبادات عاكفين عليها معرضين عن صنوف المعاصي عائقين عنها فتفتح لهم أبواب الجنان وتغلق دونهم أبواب النيران ، ولا يبقى للشيطان عليهم سلطان." [٣]

وعليه فإن في قوله – ﷺ -: (وَسُلْسِلَتِ الشَّيَاطِينُ) " مجاز عن امتناع التسويل عليهم واستعصاء النفوس عن قبول وساوسهم وحسم أطماعهم عن الإغواء." [٤]

٤- الكواكب الدراري شرح صحيح البخاري، للكرماني، ط الأولى ١٤٠٤هـ، المكتبة السلفية : جـ/٩ ص,٨٤

١- فتح الباري: جـ/٤ ص ,١٣٧

٢- فيض القدير: جـ/ ١ ص ,٣٤٠

٣- فيض القدير: جـ/ ١ ص ,٣٤٠

ونوع هذا المجاز استعارة تصريحية تبعية حيث شبه كف الأشرار من الناس ومنعهم من إيذاء غيرهم بسلسلة الشياطين وتقييدهم لمنعهم من إغواء المسلمين وإيذائهم بجامع السيطرة والقمع والقهر في كلٍ. ثم استعار لفظ المشبه به للمشبه واشتق من السلسلة بمعنى الكف والمنع ، (سُلْسِلَتِ) بمعنى كفت ومنعت على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية والقرينة المانعة هي إيقاع الفعل (قيد أو سلسل) على الشياطين في الحقيقة ، وقد أكدت هذه الاستعارة على مدى سيطرة الله – عز وجل – على الشياطين ومنعهم تمامًا من إيذاء المسلمين ، والوسوسة لهم والتشويش عليهم عند دخول شهر رمضان ..؛ وذلك تقديرًا لحرمة ذلك الشهر المبارك وتعظيمًا لفضل الصيام وتكريمًا للصائمين.

ولا يخفى ما في مجيء الفعل (سُلْسِلَتِ) بصيغة الماضي المبني للمجهول من الإيجاز والاختصار ، والمبالغة في إظهار القوة التي قيدت الشياطين ، ألا وهي قوة العلي القدير.

وهكذا فقد تجلى حذف بليغ في جملة جواب الشرط " وهو الذي يتحقق فيه وجوه البلاغة من وجود قرينة على المحذوف تؤدي إليه ، وتفيد معاني جديدة بالإضافة إلى تحقيق الإيجاز وتركيز الأفهام على ترسيخ المعنى المراد ، وهو بذلك بسبيل الحذف القرآني ويأتي في المنزلة بعده." [١]

خصال النفاق

الفرع الثالث: (إذا) فعل ماضي مبني للمجهول ، فعل ماضي مبني للمعلوم.

ورد هذا التركيب في أحاديث قليلة في الصحيحين ، نقف على نموذج منها لنكشف عن بلاغة البيان النبوي في تقويم خطأ النفاق وبيان خصاله ، من خلال النمط التعبيري بـ(إذا) الشرطية وجملة شرطها بصيغة الماضي المبني للمجهول ، وذلك في الحديث الذي رواه عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – قَالَ: " أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ"[٢]

٤– خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ، د/ عبد العظيم المطعمي: جـ/٢ ص ٥ ، ط. مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

١– صحيح البخاري – كتاب الإيمان – باب علامات المنافق ، جـ/١ ص ١٦ ، رقم الحديث: ٣٤ ، وأخرجه مسلم في الإيمان – باب بيان خصال المنافق : جـ/١ ص ٧٨ ، رقم الحديث : ٥٨,

في هذا الحديث النبوي بيان للخصال التي تتعلق بالمنافقين ، وأفعال هي من أخلاقهم ، ومن شأن هذه الخصال أنها إن تفشت في مجتمع فإنها تنزع الثقة من أفراده ، وتنشر العداوة والبغضاء وتضيع الحقوق ، وتؤدي إلى مختلف ألوان الشرور ؛ لذلك حرص الرسول – ﷺ – على تجلية هذه الصفات والتحذير منها ، والحذر من أصحابها في ثوب بلاغي قشيب متمثلاً في أسلوب الشرط ؛ حيث بُني الحديث النبوي على أسلوب الشرط من بدايته إلى نهايته ، وهذا يشير إلى دلالات منها:

– الإشارة إلى كون الشخص منافقًا أو غير منافق من فعله واختياره ؛ لأنه لو ترك الفعل لما وقع الجزاء.

– الإشارة إلى إمكانية الرجوع إذا تخلى عن صفات النفاق بأن يصدق إذا حدث ، وأن يوفي إذا عاهد ، وأن يحفظ الأمانة ، وألا يفجر.

واللافت للنظر في الحديث أن الرسول – ﷺ – قد استخدم (إذا) في الجمل الشرطية الأربع الأخيرة ، وهي قوله: (إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ) ، وفيه إيحاء بأن المنافق ينتهز كل فرصة ليحدث شرًا ، فإذا اؤتمن خان وإذا حدث كذب ... إلى آخره ؛ لأن (إذا) تفيد تحقق وقوع الشرط.

ويلحظ أن فعل الشرط في الجملة الأولى ورد بصيغة الماضي المبني للمجهول (إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ) ؛ وذلك للإيجاز والاختصار ، كما يدل حذف الفاعل على العموم والمبالغة في بيان خيانته ، فالمنافق يتأتى منه الخيانة لكل من ائتمنه ، مما يدل على تفشي خيانته وعدم تفريقه بين من يأتمنه ، فهو ليس أهلاً للأمانة لأي أحد. وبين قوله: (اؤْتُمِنَ) وقوله: (خَانَ) طباق يؤكد المعنى ويوضحه ، ويشير إلى قبح المنافق بخيانة من وثق فيه وائتمنه.

هذا وقد ورد فعل الشرط في الجمل الأخرى بصيغة الماضي المبني للمعلوم: (وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ) ؛ وذلك لأنه هو الفاعل للحديث والوعد والخصام ، وللتناسب بينها في الألفاظ والمعاني ، فبين قوله: (حدث – خاصم – عاهد) من حيث إنها أفعال قولية من معاملات الناس ، وبين قوله: (كذب – غدر – فجر) تناسب في الألفاظ والمعاني ؛ لأنها من ناحية الألفاظ أفعال ماضية ، ومن ناحية المعاني تقع في إطار الصفات القبيحة التي يتصف بها المنافقون ، وعليه فإن في الجمل الشرطية الثلاث: (وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ) مراعاة النظير وهو " الجمع بين أمر وما يناسبه لا

بالتضاد." [١] ؛ ولذلك اتحدت في مجيء فعل الشرط بصيغة الماضي المبني للمعلوم ، بخلاف الجملة الأولى.

هذا وبين الجمل الشرطية الأربع التي حملت صفات المنافقين ترصيع وهو " أن يتفق ألفاظ القرينين على الوزن." [٢] وقد أحدث خفة على السمع وسهولة للحفظ. وفي الجملتين الأخيرتين: (وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ) سجع نشأ من توافق الفاصلتين في الحرف الأخير. ومجيء الشرط وجزاؤه في الجمل الأربع أفعالاً تفيد التجدد والحدوث ، وكونها ماضية يفيد التحقق ، مما يشير إلى انتهاز المنافق الفرصة كلما استطاع.

وعليه فإن اجتماع هذه الصفات سواء أكانت فعلية أم قولية ليشير إلى أن المنافق جمع الشر من كل أطرافه ، فهو غادر خائن كذاب فاجر ، ومثل هذا النموذج خطر على المجتمع ؛ لأن الشر ملازم له كلما واتته فرصة ؛ لذلك حذر الرسول – ﷺ – منه وبين صفاته ؛ حتى يكون المجتمع من أمثاله على حذر ، وحتى يفتش كل من يبغي النجاة في نفسه لينقيها من كل خصلة تجنح به إلى النفاق.

صورة المسلم الرباني والولي الحقيقي

الفرع الرابع: (إذا) فعل ماضي ، فعل ماضي ناسخ (كان)

ورد هذا التركيب لـ(إذا) الشرطية في أحاديث قليلة في الصحيحين ، بل أحاديث محدود نقف على نموذج منها ، ليتجلى لنا بلاغة جملة (إذا) الشرطية وجوابها بلفظ الفعل الماضي الناسخ ، وذلك من خلال البيان النبوي الذي يرسم لنا صورة للمسلم الرباني والولي الحقيقي ، الذي صلح قلبه فصلح جسده ، فصلحت عبادته فنال رضا ربه ، وذلك في الحديث القدسي الذي رواه الإمام البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ –: " إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ،

١– التبيان في علم المعاني والبديع والبيان للطيبي – تحقيق: هادي عطية مطر الهلالي ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م ، طبعة عالم الكتاب – بيروت – لبنان ، ص ٣٤٩,

٢– السابق: ص ٥٠١,

وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ." [١]

والمتأمل في بناء الحديث يجد أنه يجسد النموذج الأكمل لمسلم يسعد المجتمع بانتمائه إليه؛ لأنه يكون مصدر خير مطلق لكل من حوله يؤدي الأمانة ويساعد الضعفاء ويرفع المعاناة عن الآخرين ، فهو متفانٍ في مرضاة الله على كل وجه. كما يحدد الحديث ملامح شخصية ولي الله الذي يتحرك ويسكن وفق ما يرضي الله ، يؤدي الفرائض ويتقرب إلى الله بالنوافل حتى ينال محبة الله. وكل هذا قد أفصحت عنه جملة (إذا) الشرطية وجوابها بلفظ الماضي الناسخ في قوله: (فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا).

ويُلحظ أن (إذا) الشرطية قد اقترنت بـ(الفاء) التي تفيد التعقيب بلا مهلة والترتيب والتسبيب – أيضًا – على الحب الناتج من سعي العبد وترقبه إلى ربه (حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ...) أي: أن الحب الأول الذي هو غاية العبد من سعيه يعقبه بلا مهلة ويترتب عليه ويتسبب منه حب آخر الذي هو حب العطاء والفيض. ثم تبدأ الجملة الشرطية بـ(إذا) دون غيرها من أدوات الشرط ، للدلالة على تحقق الشرط ؛ " ولذلك غلب دخولها على لفظ الماضي ؛ لأنها أنسب بالجزم بالوقوع." [٢] ومن ثم فهو مناسب لمقام الحب الإلهي والعطاء الرباني ، إذ هو محقق للعبد الذي سعى وتقرب إلى مولاه.

وفيه إشارة إلى أن من سعى إلى الله لقى الله عند نهاية مسعاه وهو يبسط له اليدين بالعطاء ، الذي لا يمكن أن يكون من غيره سبحانه.

ثم يأتي فعل الشرط ماضيًا وهو قوله: (أحببته) وهو حب العطاء والفيض من الله – سبحانه – لعبده. وتأمل ما فيه من البلاغة الناشئة من اشتقاقه من الحب الأول: (حتى أحبه) وتكراره له مما يؤكد المعنى ويقويه ، ويقرره في ذهن المخاطب.

ويرد جواب الشرط بلفظ الفعل الماضي الناسخ (كان) المتصل به (تاء) الفاعل: (كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ...) واتصال " تاء " الفاعل بالفعل الماضي الناسخ أضفى عليها من الجلال والمهابة ما يبوح بعظمة عطاءات الله – عز وجل –

١- صحيح البخاري: جـ/٣ ص ٢٤٧ – كتاب الرقاق – باب التواضع – حديث رقم: ٦٥٠٢,

٢- الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم ، العصام الاسفراييني ، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي ، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ ٢٠٠١م ، ط. دار الكتب العلمية – بيروت ، جـ/١ ، ص ٤٥٨,

وفيوضاته على عبده الذي ثابر حتى أحبه الله ، كما أفصحت جملة جواب الشرط عن أول فيض من هذا العطاء، وهو أن يكون الله – سبحانه – بعزه وجلاله وسلطانه سمع هذا المحب المحبوب ، وبصره ويده ورجله. وأي شيء بقي من التكريم بعدما يصير هذا العبد رباني الجوارح؟!

هذا وقد قيل في معنى جواب الشرط: (كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ) أي: كنت سمعه وبصره في إيثاره أمري ، فهو يحب طاعتي ويؤثر خدمتي كما يحب هذه الجوارح !!. وقيل: إن معناه أن السمع بمعنى المسموع والبصر بمعنى المرئي ، والمراد كنت مسموعه ومرئيه ، فلا يسمع إلا ما يرضيني ولا ينظر إلا في عجائب ملكوتي ، ولا تمد يده إلا فيما فيه رضاي. وقيل: معناه توفيق الله لعبده في الأعمال التي يباشرها بهذه الأعضاء. [١]

ومن هذه الأقوال نرى أن قوله: (كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ) من قبيل التشبيه التمثيلي ، " الذي يراد به تصوير الغائب بصورة الشاهد ، وتعبير الأمور المعنوية بالأمور الحسية ؛ لتجلية المعاني وتقريبها وتبصير القلوب وإيناس النفوس." [٢] والغرض من هذا التمثيل هو تقرير الحال لا بيان المقدار ، فمقدار الله أعظم وأجل من ذلك ، ومما يؤيد ذلك ما أورده ابن حجر عن الإمام الطوفي قوله: " اتفق العلماء ممن يعتد بقولهم أن هذا مجاز وكناية عن نصرة العبد وتأييده وإعانته ، حتى كأنه – سبحانه – ينزل نفسه من عبده منزلة الآلات التي يستعين بها ؛ ولهذا وقع في رواية " فبي يسمع وبي يبطش وبي يمشي"[٣] وهذا كلام في غاية البلاغة والدقة في فهم وتحليل كلام الله – عز وجل – في حديثه القدسي.

وعلى الجملة فإن هذا التمثيل الذي ورد في سياق جواب (إذا) الشرطية يبين أن العبد متى كان بهذه المثابة صار إلى هذه المثوبة ، فمن نال القرب وأحبه الله تحررت قواه من حدودها البشرية ، وصارت على اتصال بالقوة العظمى التي لا يعجزها شيء ، وصار العبد ربانيًا يقول للشيء كن فيكون ؛ لأنه متصرف بحول الله وقوته وهي صورة مُثلى لما يجب أن

١- يراجع: فتح الباري: جـ/١١ ص ٤١٧,

٢- ينظر: في تأثير التمثيل – أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر ، تحقيق: هـ. ريتر ، دار المسيرة ، بيروت ، ط. الثالثة ، ١٩٧٩م : ص ١١٥ وما بعدها.

٣- فتح الباري: جـ/١٧ ص ٣٢٠ ، ٣٢١,

يكون عليه كل مؤمن طموح ، ليكون في مجتمعه مصدر خير لكل من حوله ، ومصدر أمن لهم.

اجتماع أداة الشرط (إنْ) مع (إذا):

ويعطف على جملة (إذا) الشرطية وجوابها ، جملتا شرط ، وأداتهما (إنْ) وذلك في مرحلة الحب العليا التي يكون عليها المؤمن الحق ، والتي توصله إلى أن يكون مستجاب الدعاء ، قريبًا من السماء ، وذلك في قوله: (وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ ...) وهو لون آخر من الكرامة والإكرام مترتب على الحب بلا مهلة؛ لأنه داخل في حيز الشرط الأول (فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ...) وفيه إشارة على أن الفيض من العطاء يتوافد على هذا العبد بمجرد أن يظفر بحب الله له ، ومن هذا العطاء العاجل: (وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ ...) وهكذا فقد جاءت جملتا شرط داخليتين في حيز الجملة الأولى ، وقد علق فيهما الجواب على الشرط ، حيث علق في الأولى العطاء على السؤال ، وعلق في الثانية الإعاذة على الاستعاذة.

وثمة فرق بين هاتين الجملتين والجملة الأولى من حيث الأداة ، حيث وردت الجملة الأولى بأداة التحقيق (إذا) والجملتان الأخريان بأداة الشك (إنْ) ، وفرق بين الأداتين ، يقول الخطيب: " أما (إن) و(إذا) فهما للشرط في الاستقبال لكنهما يفترقان في شيء واحد وهو أن الأصل في (إنْ) ألا يكون الشرط فيها مقطوعًا بوقوعه ... والأصل في (إذا) أن يكون الشرط فيها مقطوعًا بوقوعه."[١]

وعليه فإن استخدام (إنْ) في الشرط يفيد القلة وعدم الجزم بوقوع الشرط ، وهي بهذا المعنى في الحديث تفيد أن هذا العبد رغم عظم منزلته ، وكونه مستجاب الدعاء فهو غارق في خدمة سيده ، متفانٍ في طاعته لا يلتفت إلى زينة الدنيا زاهد في مباهجها ، فقلما يسأل الله شيئًا ؛ لذلك ساغ استعمال (إن) التي تعنى عدم الجزم بوقوع الشرط ، غير أنها لا تنفي وقوعه ، فربما يسأل هذا العبد ربه شيئًا لآخرته. وتأكيد جواب الشرط باللام والنون (لأعطينه) فيه دلالة على تحقيق العطاء عند السؤال ، ويوحي بمدى حفاوة الله بعبده ومنزلته عنده.

وفي الجملة الثالثة – أيضًا – استخدمت (إنْ) الشرطية بمعنى عدم الجزم بتحقيق الشرط، مع الفعل الماضي الدال على التحقق وذلك في قوله: (ولئن استعاذني لأعيذنه)

١- الإيضاح: جـ/١ ص ٢١٦,

فالتحقيق للإعاذة مؤكدة من الله لوليه بدليل ما سبق في الحديث (من عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب) ولذلك جاءت الإعاذة مؤكدة باللام والنون ودلالة الفعل الماضي (لأعيذنه).

وعدم الجزم بالوقوع المدلول عليه بـــ(إن) من جانب الولي ؛ لأنه يحيا في معيـــة الله وكنفه وهو في شعوره هذا أكثر الناس متعة وإحساسًا بالأمن وشعوراً بأنه مستعلٍ على جميع الأخطار تحت العرش حيث لا ضرر ولا شر ؛ لذلك قلما يحتاج إلى الاستعاذة إلا من باب متابعة الرسول – ﷺ – في أذكاره. " ولا شك أن هؤلاء أُعطوا قبـــل أن يســـألوا وأُعيـــذوا قبـــل أن يستعيذوا ؛ ولهذا جاءت (إنْ) في الجملتين لتدل على هذا ، وتدل على أن الحق يفتح لهم باب المزيد إن أرادوا المزيد."[١]

وهكذا فإن الرسول – ﷺ – عندما يرفع هذا النموذج بين أعين أصـــحابه ، وبعـــد أن يبين طريقة الوصول إلى هذه المنزلة يريد أن يبني مجتمعًا مثاليًا فاضلاً ، يجنب أفراده الخطأ حيث تتسامى نفوسهم عن الدنيا وتطمح إلى مرضاة الله ضاربة سهام الخير فـــي كـــل واد ، ممثلة لنا في صورة المسلم المثالي الرباني ، والولي الحقيقي.

الحث على الطهارة والترفع عن القذارة

الفرع الخامس: (إذا) فعل ماضي ، فعل ماضي مؤكد بـــ(قد)

ورد هذا التركيب في أحاديث قليلة ، وقد جاء فيها الجواب بـــ(قد) مقترنـــة بالفـــاء ، ومن ذلك ما جاء في مقام الطهارة في الحديث الذي رواه الإمامـــان البخـــاري ومســـلم فـــي صحيحيهما عن أَبي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ– ﷺ – قَالَ: «إِذَا جَلَسَ بَيْنَ شُعَبِهَا الأَرْبَعِ، ثُمَّ جَهَدَهَا فَقَدْ وَجَبَ الغَسْلُ»[٢]

في هذا الحديث يعلم الرسول – ﷺ – أمته الطهارة والترفع عن القذارة ؛ لأنها بئست الشارة ، فيوجب الغسل على من جلس من امرأته هذا المجلس ، كما يعلمنا أن نربأ بأنفســـنا عن مواطن الإثارة وأن نسلك سبيل التلميح والتكنية في الأحاديث المتصلة بالجنس ، وهذا من أدب الكلمة والسلوك في الإسلام ، أما أن يكشف الجنس نفسه عن ساقه بهذا العري الفاضـــح والتبذل المشين فهذه هي الفواقر المبيدة.

١– شرح أحاديث من صحيح البخاري – أ. د/ محمد محمد أبو موسى – طبعة أولى ١٤١٢هـــ ٢٠٠١م – ط. مكتبة وهبة: ص ٤٤٧,

٢– صحيح البخاري – كتاب الغسل – باب إذا التقى الختانان: جـــ/١ ص ٣٩٥ رقم الحديث: ٢٩١ ، وأخرجه مسلم في كتاب الحيض – باب نسخ الماء من الماء رقم الحديث: ٣٤٨,

ولأهمية هذا الأمر فقد بنى الرسول – ﷺ – حديثه على أسلوب الشرط ، حيث يربط الجزاء بالفعل ، واستخدم فيه (إذا) التي تفيد تحقق وقوع الشرط ؛ ولهذه الأهمية فقد جاء جواب الشرط بلفظ الماضي (وجب) ويدل هو الآخر على تحقق الوقوع ، كما سبق بحرف التحقيق (قد) ليفيد مزيدًا من التأكيد.

ويلحظ أن جواب الشرط: (فَقَدْ وَجَبَ الغَسْلُ) أفاد الأمر بوجوب الغسل ، بيد أنه ورد بصيغة الخبر – الفعل الماضي – وفيه تأكيد للأمر ، والمبالغة فى الحث عليه ؛ حتى كأنه سورع فيه إلى الامتثال والانتهاء فهو يخبر عنه. وقد أشار الإمام الزمخشري إلى نظيره في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ... ﴾[1] : " فإن قلت: فما معنى الإخبار عنهن بالتربص؟ قلت: هو خبر في معنى الأمر وأصل الكلام " وليتربص المطلقات" وإخراج الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله ، فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص فهو يخبر عنه موجودًا." [2] ، ويقول الإمام الزركشي: " إنما يجيء الأمر بلفظ الخبر الحاصل ؛ تحقيقًا لثبوته وأنهم مما ينبغي أن يكون واقعًا ولا بد."[3]

ومن ثم فإن هذا النوع من التعبير النبوي (فَقَدْ وَجَبَ الغَسْلُ) فيه تأكيد وهو مجاز التشبيه، حيث شبه الطلب في تأكده بخبر الصادق الذي لا بد من وقوعه ، وإذا شبهه بالماضي كان أكثر تأكيدًا.

وهكذا تكمن الدقة البيانية النبوية في التعبير عن الأمر بصيغة الخبر الماضي المسبوق بـ(قد) التي تفيد التحقيق والتأكيد ، ووقوعه جوابًا لـ(إذا) الشرطية ، وكل هذا يوضح دلالة جواب الشرط على الأمر المراد منه الوجوب ويؤكد عليه.

١- البقرة: من الآية (٢٢٨).

٢- الكشاف عن حقائق تنزيل وعيون الأقاويل ، للزمخشري ، مكتبة الباب الحلبي ، الطبعة الأخيرة ، ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م : جـ/١ ص ,٣٦٥

٣- البرهان في علوم القرآن للزركشي – تحقيق: محمد أبو الفضل ، ط الثانية – دار المعرفة: جـ/٣ ص,٣٤٩

المبحث الثاني:

(إذا) فعل ماضي ، جملة طلبية

هذا النمط التعبيري بـــ(إذا) الشرطية شائع منتشر في الحديث الشريف ، وقد اقترن فيه جواب الشرط بـــ(الفاء) ؛ لأنه جملة طلبية ، فقد قرر النحاة: " أن الجملة الطلبية هـــي أحـــد المواضع الستة التى لا بد من اقتران جواب الشرط فيها بـــ(الفاء)." [١] ويـنـــدرج تحـــت هـــذا النمط ثلاثة أفرع ورد جواب الشرط فيها فعلاً دالاً على الطلب وهي: فعل الأمر ، والمضـــارع المقترن بلام الأمر ، والمضارع المجزوم بـــ(لا) الناهية.

وصايا للدعاة وإسباغ الوضوء والاطمئنان فى الصلاة

الفرع الأول: (إذا) فعل ماضي ، فعل أمر

ورد هذا النمط التعبيري بـــ(إذا) الشرطية في عشرات المواضع في الصحيحين ، ومنها ما جاء في الحديث الذي رواه البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى اليَمَنِ: «إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ، فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ ، فَـــأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِـــذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ»[٢]

فالحديث الشريف مجموعة من الوصايا قدمها - ﷺ - لمعاذ بن جبل ليرسم له منهاج تعامله مع أهل اليمن الذين أرسل إليهم ، وقد وصاه الرسول - ﷺ - بأن يبدأ صـــلته بـــالقوم بدعوتهم إلى الشهادتين فحسب ؛ لأن استجابتهم إلى ذلك تمهد إلى قبول ما تليه مـــن أركـــان الإسلام. ولأهمية ذلك فقد آثر النبي - ﷺ - التعبير عنه بجملة (إذا) التي تفيد القطع بوقـــوع الشرط " تفاؤلاً بحصول الوصول إليهم." [٣]

١- شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب – لابن هشام الأنصاري. تحقيق: عبد المتعال الصعيدي – مطبعة على صبيح ١٣٨٥هـــ ١٩٦٦م : ص ٣٤١,

٢- صحيح البخاري – كتاب الزكاة – باب أخذ الصدقة من الأغنياء – جـــ/٢ ص ٥٤٤ رقم الحديث: ١٤٩٦,

٣- فتح الباري: جـــ/٥ ص ١٢٩,

فالمرء إذا عظمت رغبته في حصول أمر ، كثر تصوره له فيراه حاصلاً بين يديه ماثلاً أمام عينيه ، شاهداً في ناظريه ، وحينئذ يعبر عنه بلفظ الماضي ، إظهاراً للرغبة في وقوعه ، وإبرازاً له في معرض الحاصل.

والتعبير على هذه الصورة التي تشعر بحدوث المرغوب فيه ، يدخل على المستمع السرور ، فيحثه على تحقيق هذا الوقوع ، ويطمئنه على تخطي الصعاب والتغلب على العوائق، والسلامة من الأخطار ، فهو – لا شك – واصل إلى المراد ؛ ولذا جاء الفعل الماضي بعد (إذا)؛ إظهارًا للرغبة في وقوعه وإدخالاً للسرور على المخاطب في تحقيق هذا الوقوع.

واللافت للنظر أن الرسول – ﷺ – عبر عن فعل الشرط بقوله: (جئتهم) في حين بدأ بالفعل (أتى) في قوله: (إِنَّكَ سَتَأْتِي) وكان بمقدوره – ﷺ – أن ينظم حديثه على فعل واحد منهما، فهما في الظاهر يترادفان ، بيد أننا بعد التأمل تتكشف لنا الدقة البيانية للبلاغة النبوية ، إذ ذهاب معاذ في أول الأمر يتلبس بشيء من الخفاء والستر ، فهو طارئ على القوم دون سابق معرفة لهم ؛ ولذا لزم أن يكون هذا الذهاب منه إتيانًا ؛ لأن الإتيان ذهاب في أناة وانسياب ، أما ذهابه لمجادلتهم بعد وصوله إليهم وإتيانهم ، فهو ذهاب متلبس بالوضوح والظهور لا خفاء فيه ، فلزم أن يكون ذلك مجيئًا.

هذا وقد جاء جواب الشرط بصيغة الأمر المقترن بـ" الفاء" (فادعهم) مما يدل على أهمية الدعوة إلى النطق بالشهادتين والمسارعة في ذلك. ومن بلاغة التعبير النبوي بلفظ (ادعهم) أن الرسول – ﷺ – جعل المطلوب من معاذ مع الشهادتين الدعوة ؛ لأن الشهادتين لا تتحققان إلا بالسماع والإعلان ، ومن ثم طلب منه أن يدعوهم إليها ، في حين جعل المطلوب مع الصلاة والصدقة (الإخبار) وذلك في قوله: (فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ ، فَأَخْبِرْهُمْ...) إذ الصلاة والصدقة عبادتان فرديتان لا يطلب فيهما الإعلان والإظهار ؛ ولذا طلب منه أن يخبرهم بكل منهما.

اجتماع أداة الشرط (إذا) مع (إن)

هذا وقد عطف على جملة جواب الشرط جملة شرط أخرى أداتها (إنْ) في قوله: (فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ...) وفي مجيء أداة الشرط (إنْ) في الطاعة دلالة على أنه أمر غير محقق ، " فالأصل في (إنْ) ألا يكون الشرط فيها مقطوعًا بوقوعه ...، والأصل في (إذا) أن يكون الشرط فيها مقطوعًا بوقوعه." [١]

١- الإيضاح: جـ/١ ص ٢١٦,

ويلحظ في جملة (إن) الشرطية المعطوفة على جواب جملة (إذا) الشرطية أنه قد فصلت أداة الشرط (إن) عن فعلها بالضمير (هم) مما يفيد التأكيد ؛ وذلك إشارة إلى أن " اجتماعهم على الطاعة في صورة ظاهرة واضحة أمر ضروري للانتقال إلى مرحلة أخرى ، فلا يكفي في الانتقال أن يتوقع منهم الطاعة ، بل لا بد من أن يظهر اجتماعهم على ذلك ويتضح."[١]

وهكذا فقد حدد النبي – ﷺ – لسيدنا معاذ – رضي الله عنه – إطار تحركه مع أهل اليمن ، يرتب له – فوق ذلك – تتابع الخطو في مواجهتهم بالدعوة المبعوث بها نيابة عنه – ﷺ – بداية من دعوتهم إلى النطق بالشهادتين والمسارعة في ذلك ، ثم التأكيد على إظهار طاعتهم له حتى يخبرهم بتعاليم الإسلام ، وإن كان ذلك الأمر غير مقطوع بوقوعه. وهذا ما كشفت عنه جملتا (إذا) الشرطية و(إن) الشرطية المعطوفة على جوابها.

وفي مقام تعليم أركان الصلاة والأمر بإسباغ الوضوء لها يأتي نمط التعبير بـ(إذا) الشرطية وجوابها فعل الأمر المقترن بـ(الفاء) ، وذلك في الحديث الذي رواه الإمام البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – : أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ المَسْجِدَ، وَرَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – جَالِسٌ فِي نَاحِيَةِ المَسْجِدِ، فَصَلَّى ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ –: «وَعَلَيْكَ السَّلاَمُ، ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ» فَرَجَعَ فَصَلَّى ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ، فَقَالَ: «وَعَلَيْكَ السَّلاَمُ، فَارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ» فَقَالَ فِي الثَّانِيَةِ، أَوْ فِي الَّتِي بَعْدَهَا: عَلِّمْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: «إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلاَةِ فَأَسْبِغِ الوُضُوءَ، ثُمَّ اسْتَقْبِلِ القِبْلَةَ فَكَبِّرْ ، ثُمَّ اقْرَأْ بِمَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَسْتَوِيَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلاَتِكَ كُلِّهَا»[٢]

لما كانت الصلاة من الأهمية بمكان للفرد في علاقته بربه وتكفيرها لذنوبه على مدار اليوم والليلة ، وهي للمجتمع مدرسة يتعلم فيها أفراده فيما بينهم النظام والمساواة والتعاون والتكافل والنظافة ؛ لذلك كان حرص الرسول – ﷺ – على أدائها كاملة بكل أركانها بحيث تؤتي ثمارها في إعداد فرد صالح ، دنياه في يده وآخرته في قلبه.

١– تأملات في البيان النبوي: د/ إبراهيم عوضين: ط/ الثالثة ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م ، ص ٩٧,

٢– صحيح البخاري – كتاب الاستئذان – باب من رد فقال: عليك السلام – حديث رقم: ٦٢٥١,

ومن ثم جاء التعبير النبوي بـ(إذا) الشرطية في سياق التعليم والتقويم لخطأ الاضطراب ونقص ركن الطمأنينة في الصلاة مما يجردها من مضمونها ويجعلها مجرد حركات ، وعليه فقد كانت جملة (إذا) الشرطية بمثابة الوسيلة البيانية لعلاج وتقويم هذا الخطأ حيث قال الرسول – ﷺ – للرجل: (إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلاَةِ فَأَسْبِغِ الوُضُوءَ، ثُمَّ اسْتَقْبِلِ القِبْلَةَ فَكَبِّرْ ، ثُمَّ اقْرَأْ بِمَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا). وقد استخدم الرسول – ﷺ – (إذا) دون (إن) إشارة إلى تحقق الوقوع لما رأى من حرص الرجل على أداء الصلاة ، وتعبيره عن نية أداء الصلاة بالقيام لها استعارة تبعية وذلك في قوله: (قُمْتَ إِلَى الصَّلاَةِ) حيث شبه نية أداء الصلاة بالقيام لها واستعار من القيام (قُمْتَ) لنية أداء الصلاة بجامع تحقق الوقوع في كل على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية. والقرينة هي عطف جملة الجواب بـ(الفاء) على جملة الشرط: (إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلاَةِ فَأَسْبِغِ الوُضُوءَ) والتعبير بالاستعارة يفيد المسارعة إلى تحقق وقوع الشرط وهو القيام بالصلاة ، والتعبير بالقيام يفيد الشوق لها وتمام الاستعداد والثبات والرعاية للمقام والاهتمام به ، وغيرها من المعاني. [١]

كما يفيد تعدية الفعل (قمت) بـ(إلى) التأكيد على فضل الصلاة وضرورة العناية بها. وفي تعلق جواب (إذا) بفعل الشرط إشارة إلى توفر ركن الطهارة بإسباغ الوضوء ، والتعبير بفعل الأمر (أسبغ) يفيد العناية والتأكيد على إتمام الوضوء بكل شروطه وواجباته.

ويلحظ مجيء جواب الشرط مقترنًا بحرف العطف (الفاء) ؛ وذلك لوروده جملة طلبية بلفظ الأمر (فأسبغ) ، وفي استخدام الرسول – ﷺ – لأدوات العطف ضبط لحركة الزمن في أداء الصلاة ، حيث استخدم (الفاء) في موضع تقويم الخطأ أولاً في تنبيه الرجل إلى خطئه في عجلته ، حيث رتبت (الفاء) بين الأمر بالرجوع والأمر بالصلاة دون فاصل زمني (ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ) وثانيًا: في ربط جواب الشرط بفعله في قوله: (إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلاَةِ فَأَسْبِغِ الوُضُوءَ) وفيه إشارة منه إلى العجلة في السعي إلى الخير وعمل الآخرة ، فإذا دخل في أعمال الآخرة بالصلاة أو غيرها ترك الزمن يمر دون حساب ؛ ولذا استخدم الرسول – ﷺ – (ثم) تسع مرات بعد ذلك ؛ إشباعًا لركن الطمأنينة التي تحقق غرض الصلاة في تهذيب النفس وتحقيق الصفاء والدخول إلى حظيرة القدس.

١– ينظر: أساس البلاغة للزمخشري ، طبعة ثالثة ، ١٩٨٥ ، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مادة (قوم).

وتكرار جملة (تطمئن) خمس مرات تأكيد على ضرورة هذا الركن ، ووجوب انسحابه في كل أركان الصلاة مما يستلزم ضرورة أن يفرغ الإنسان نفسه عند الصلاة من كل أمور الدنيا عند تكبيرة الإحرام ، وأن يقبل عند استقبال القبلة على الله بقلب خاشع ليس فيه سواه حتى يقضي صلاته ؛ ولذلك أمره في نهاية الحديث: (ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلاَتِكَ كُلِّهَا) " إشارة إلى تعميمه في كل أجزائها فرضًا كانت أو نفلاً."[١] وإشارة الرسول – ﷺ – (ذلك) التي للبعيد إلى فعل ذكره من قريب ، يوحي بارتفاع شأنه وعلو مكانته ؛ تنويهًا بفضله.

وفي مقام الصلاة والحث على الخشوع والاطمئنان في آدائها يهل علينا الأمر المحمدي ضمن الجملة الطلبية الواقعة جوابًا لـ(إذا) الشرطية ، وقد حمل في ثناياه باقة فواحة من مشاعرالرحمة والشفقة والرأفة بأمته ، عندما يشتد عليهم الحر فيسلبهم الخشوع في الصلاة ، فيرشدهم الرسول – ﷺ – إلى الإبراد بالصلاة أي: تأخيرها إلى أن يبرد الوقت والحكمة من ذلك هو دفع المشقة عنهم ، وتحقيق الخشوع والاطمئنان في الصلاة ، وذلك في الحديث الذي رواه أَبِو هُرَيْرَةَ، وَنَافِعٌ مَوْلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ: أَنَّهُمَا حَدَّثَاهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا اشْتَدَّ الحَرُّ فَأَبْرِدُوا عَنِ الصَّلاَةِ، فَإِنَّ شِدَّةَ الحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ»[٢]

فالحديث الشريف قد بُني على أسلوب الشرط وأداته (إذا) وجوابه جملة طلبية بلفظ الأمر المقترن بـ(الفاء): (فَأَبْرِدُوا) ومعناه قد اختلف فيه العلماء ، فقيل: هو التعجيل ، وقيل: للتأخير، كما اختلفوا في الغرض البلاغي من الأمر فقيل: هو أمر استحباب ، وقيل: أمر إرشاد، وقيل: للوجوب. وهل الأمر بالإبراد عام يشمل الجماعة والمنفرد أو خاص بالجماعة والبلد الحار؟.[٣]

والذي أراه: أن جواب الشرط الوارد في الحديث بصيغة الأمر (فَأَبْرِدُوا) هو للنصح والإرشاد من الرسول – ﷺ – لأمته بأن يؤخروا صلاة الظهر إذا اشتد الحر ؛ رحمة بهم ودفعًا للمشقة عنهم ، وتحقيقًا للخشوع في الصلاة.

١- عمدة القاري: جـ/٤ ص ,٤٥٥

٢- صحيح البخاري – كتاب الصلاة – باب الإبراد بالظهر في شدة الحر: جـ/١ ص ١٩٨ حديث رقم: ,٥٣٣

٣- يراجع: فتح الباري: جـ/٢ ص ,١٦

والمتأمل في جواب الشرط (فَأَبْرِدُوا) يجد أن التعبير النبوي بمادة (برد) قد وفّى بالغرض وحقق المطلوب عن طريق الطباق ، " فالبرد: ضد الحر والبرودة: نقيض الحرارة ، والإبراد إنكسار وهج الحر وهو من الإبراد: الدخول في البرد ، وأبرد القوم: دخلوا في آخر النهار." [١]

فالتعبير بالبرد مقابل الحر في الحديث قد أبرز المعنى ووضحه ، كما أن في التعبير بالكلمة ومقابلها تأثيرًا في النفس ، حيث تجعلها كأنها مستفزة ومثارة بما تحدثه الكلمة ومقابلها من صراعات وتجاذبات فتجعل نفس السامع تنظر إلى الكلمة ، فيتضح لها المعنى المراد فتختار ما يلائمها ، فالسامع – هنا – ينظر إلى الحر والبرد ، وكل منهما نقيض الآخر فيختار ما يلائمه، فإذا اشتد الحر انتظر إلى أن يبرد الجو ؛ حتى يستطيع أداء الصلاة في خشوع ، كما أن في التعبير بلفظ (أبردوا) بدلاً من (أخروا) نصًا على المطلوب وهو تأخير الصلاة إلى أن يبرد الجو ، فإذا برد الجو سارعوا في أداء الصلاة ، وهذا ما أفادته (الفاء) المقترنه بالفعل (فَأَبْرِدُوا) حيث تفيد السرعة ؛ إذ ليس المراد مطلق التأخير حتى لا يفوته وقت الفضيلة ، ولا يؤخرها إلى وقت الكراهة ، أو يفوت وقتها أصلاً فيصليها قضاءً.

هذا وقد ذُكر بعد جواب الشرط (فَأَبْرِدُوا) ما يقويه وهي العلة التي من أجلها أرشد الرسول – ﷺ – إلى الإبراد بالصلاة وتمثل ذلك في الجملة المؤكدة بـ(إن) في قوله: (فَإِنَّ شِدَّةَ الحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ) ؛" فيكون الوقت مظهرًا لآثار الغضب والعمل عند ظهور آثار الرضا أقرب إلى القبول منه عند ظهور آثار الغضب ، فقد يقبل عند الرضا ما لا يقبل عند الغضب."[٢]

وقد وردت العلة على طريق التشبيه ، كما يقال: النيل من الجنة ، وكونها من التشبيه على معنى أن شدة الحر شبيه بحر جهنم ؛ تنبيهًا للنفوس على شدة حر النار. كما أن ورود (من) في الجملة يفيد المبالغة في شدة الحر مما يزيد في الحث والترغيب في هذا الأمر ، وهو الإبراد بالصلاة ، وينفر من الصلاة في هذا الوقت الذي يشتد فيه الحر فيسلب المصلي الخشوع في الصلاة ؛ وذلك لأن (من) تحتمل معنيين في الجملة. إما الابتدائية أي: أن شدة الحر في هذا الوقت نشأت من فيح جهنم ، وإما تبعيضية أي: بعض منها يشبه نار جهنم.

٤– لسان العرب مادة (برد).

١– حاشية السندي على صحيح البخاري ، وتقريراتها من شرح القسطلاني وشيخ الإسلام ، ط. مكتبة الثقافة الدينية: جـ/١ ص ١٠٣,

ومن ثم فقد كان للتشبيه في قوله: (فَإِنَّ شِدَّةَ الحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ) أثره في إيضاح المعنى المراد من جواب (إذا) الشرطية: (فَأَبْرِدُوا) والمبالغة في الحث على امتثاله ؛ تحقيقًا لما أراده الرسول – ﷺ – لأمته من دفع المشقة ، وتحقيق الخشوع والاطمئنان في الصلاة.

الترغيب في النوافل والنهي عن الوصال

الفرع الثاني: (إذا) فعل ماضي ، فعل مضارع مقترن بلام الأمر

هذا النمط التعبيري لـ(إذا) الشرطية منتشر في الصحيحين ، وهو متفق مع خصائص الحديث الشريف ؛ لأن الحديث أحكام دينية توضح للناس أمور دينهم فمن الطبيعي ، أن يكون تعليق القيام بأمر ما على قيام المرء بعمل ما. وهذه هي العلاقة السببية بين فعل الشرط وجوابه.

ومن الأحاديث النبوية الشريفة في هذا النمط التعبيري بـ(إذا) الشرطية ما جاء في مقام الترغيب في صلاة النوافل والمداومة عليها ، عَنْ أَبِي قَتَادَةَ السَّلَمِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ المَسْجِدَ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ يَجْلِسَ»[١]

فالحديث مبني على جملة (إذا) الشرطية ، وقد جاء شرطها فعل ماضي وجوابها جملة طلبية بصيغة المضارع المقترن بلام الأمر (فَلْيَرْكَعْ) ، وإيثار هذه الصيغة في جواب الشرط فيه دلالة على التجدد والحدوث ، فكلما دخل المسلم المسجد يستحب له أن يصلي ركعتين بغرض الإكثار من النوافل ؛ لما لها من الثواب الكبير عند الله عز وجل.

ويُلحظ أن جواب الشرط قد ورد مقترنًا بـ(الفاء) التي تدل على السرعة ، وفيه دعوة نبوية لكل مسلم إذا دخل المسجد فليسرع بركعتين تحية للمسجد ؛ رغبة في الأجر من الله – سبحانه – وإعطاءً لبيوت الله حقها ، وامتثالاً لأوامره ﷺ .

ومن بلاغة جواب الشرط في قوله: (فَلْيَرْكَعْ) مجيئه بطريق المجاز المرسل ، فالمراد من قوله: (فَلْيَرْكَعْ) أي: فليصل ، وعليه فإنه مجاز مرسل وعلاقته الجزئية ، حيث أطلق الجزء وأراد الكل ، بيد أن هذا التعبير النبوي (فَلْيَرْكَعْ) يبدو – لأول وهلة – أنه ليس ثمة مجاز وأن الكلام خرج مخرج الحقيقة ؛ ويرجع ذلك إلى استقرار معنى المجاز واختصاصه بالتعبير عن هذا الجزء من الصلاة ، أو الصلاة كلها ، فهو مجاز ارتبطت دلالته – تاريخيًا –

١– صحيح البخاري – كتاب الصلاة – باب إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين: جـ/١ ص ٩٦ حديث رقم: ٤٤٤ ، وأخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها باب استحباب تحية المسجد بركعتين رقم: ٧١٤,

بظهور الإسلام وتشريع الصلاة ، ولم يكن العرب قبل ذلك يعرفون للركوع هذا الاستخدام المجازي بالتحديد ، وإنما كانت مادة (ركع) تدور حول الانحناء وما يرتبط به من معاني الخضوع والذلة وما إلى ذلك. [١] ونظرًا لاستقرار مفهوم الركعة في التشريع الإسلامي ودلالتها على وحدة الصلاة كما ذكر ذلك الفقهاء ، فإن توظيف هذا المجاز نجده يرتبط بالسياقات التي تهدف إلى تحديد العدد ، أعني: تحديد عدد ركعات الصلاة ، أو عددوحداتها التي تكرر ، ويظهر ذلك جليًا واضحًا في الحديث الذي رواه أَبِو هُرَيْرَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – ، قَالَ: « مَنْ أَدْرَكَ رَكْعَةً مِنَ الصَّلَاةِ، فَقَدْ أَدْرَكَ الصَّلَاةَ»[٢] ، فالركعة مقصود بها الوحدة من الصلاة مشتملة على القيام والركوع والسجود.

ولا يخفى على المتأمل ارتباط المجاز المرسل الموظف في الحديث بالعدد المنوط به الحكم ؛ حيث حدد الرسول – ﷺ – صلاة تحية المسجد بركعتين ، وهي كما يقول الإمام النووي: " سنة بإجماع المسلمين." [٣] فالحكم إذن متعلق بالمجاز ، وهذا يؤكد ارتباط ذلك المجاز بالسياقات الهادفة إلى تحديد عدد معين خاص بالصلاة.

ونخلص مما سبق: أن المجاز المرسل المعبر عنه بأسلوب الأمر والواقع في جواب الشرط (فليركع) قد نهض بدور أساس في تقديم مفهومين من مفاهيم الإسلام ، وقد تميز المجاز في هذا الحديث بإنتاج دلالة جديدة لم تكن معهودة لدى العرب من قبل ، ذلك من خلال تفاعل المجاز مع بنية الحديث وسياقه. كما أن توظيف جملة الشرط واختيار أداتها (إذا) المفيدة للتحقيق والقطع بوقوع الشرط ، وكذا التعبير بالفعل الطلبي (فَلْيَرْكَعْ) على وزن (فليفعل) بصيغة المضارع المقترن بلام الأمر جوابًا للشرط يكشفان عن حرص الرسول – ﷺ – على أن ينال كل فرد من أمته هذا الفضل العظيم والثواب الجزيل من الله الكريم.

وفي مقام النهي النبوي عن الوصال في الصيام يأتي النمط التعبيري بـ(إذا) الشرطية وجوابها جملة طلبية بصيغة المضارع المقترن بلام الأمر ، وذلك في الحديث الشريف الذي جاء في صحيح البخاري ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ – ﷺ – ، يَقُولُ: «لاَ

٢- ينظر: لسان العرب: مادة (ركع).

٣- صحيح مسلم: كتاب الصلاة – باب من أدرك ركعة من الصلاة ، جـ/١ ص ٤٢٣ رقم: ٦٠٧,

١- شرح صحيح مسلم للإمام النووي: جـ/٥ ص ٢٢٦,

تُوَاصِلُوا، فَأَيُّكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُوَاصِلَ، فَلْيُوَاصِلْ حَتَّى السَّحَرِ» ، قَالُوا: فَإِنَّكَ تُوَاصِلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ إِنِّي أَبِيتُ لِي مُطْعِمٌ يُطْعِمُنِي، وَسَاقٍ يَسْقِينِ»[١]

في هذا الحديث الشريف ينهى النبي – ﷺ – عن الوصال• الممتد في الصيام إلى آخر الليل دون أن يفطر صاحبه يومين أو أكثر ؛ لأنه يورث الضعف والملل والعجز عن المواظبة على كثير من وظائف العبادات والقيام بحقها." [٢] ويبين – ﷺ – أن الوصال من خصائصه دون غيره من أمته إلا ما أبيح الترخيص فيه إلى السحر. ومن ثم فقد جاء الترخيص النبوي في الوصال حتى السحر ؛ وذلك بسبب ما رآه – ﷺ – من تطلع الصحابة إلى الوصال في الصوم اقتداءً به ؛ ولذا فقد حدد لهم مدة الوصال إلى السحر ، وذلك عن طريق جملة (إذا) الشرطية وجوابها الطلبي بصيغة المضارع المقترن بلام الأمر في قوله: (فَأَيُّكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُوَاصِلَ، فَلْيُوَاصِلْ حَتَّى السَّحَرِ).

ويلحظ تقديم المسند إليه (فَأَيُّكُمْ) وأصل الكلام ، " فإذا أراد أيكم أن يوصل ..." ويفيد التقديم اهتمام النبي – ﷺ – بأصحابه ، ورغبته القوية في التأكيد على تحديد مدة الوصال التي تتناسب مع طاقتهم.

ويلحظ – أيضًا – مجيء المسند إليه المقدم مقترنًا بـ(الفاء) الاستئنافية البيانية حيث وقعت جملة (فَأَيُّكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُوَاصِلَ..) جوابًا عن سؤال مقدر اقتضته الجملة الأولى وهي قوله: (لاَ تُوَاصِلُوا) التي أفادت النهي الشامل عن الوصال في الصيام حاضرًا ومستقبلاً ؛ ولذا فإن بين الجملتين شبه كمال الاتصال ، وأعتقد أن هذا المعنى لـ(الفاء) دون غيره من معانيها هو المناسب – هنا – لسياق الكلام ؛ فالنبي – ﷺ – حين نهى صحابته عن الوصال في الصيام، وهم يعلمون أنه يواصل في صيامه ، حتى قالوا له: (فَإِنَّكَ تُوَاصِلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ) تطلعت نفوسهم إلى الوصال ، حرصًا منهم على التعمق في العبادة والاقتداء به – ﷺ – فكان سؤالهم الذي يختلج في نفوسهم ، وما مدة الوصال يا رسول الله إذا واصلنا في صيامنا؟ فأسعفهم بالجواب: (فَأَيُّكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُوَاصِلَ، فَلْيُوَاصِلْ حَتَّى السَّحَرِ) أي: أن مدة الوصال تنتهي عند السحر حتى لا يتجاوزونها فيقعوا في المحظور وهو المبالغة في العبادة والإفراط فيها ؛ ولذا فقد جاء في كلامه – ﷺ – في جملة جواب الشرط احتراس بلاغي حسن ، وذلك

٢– صحيح البخاري – كتاب الصوم – باب الوصال – جـ/٣ ص ٣٧ حديث رقم: ١٩٦٣.

• الوصال في الصوم هو ألا يفطر يومين أو أيامًا. اللسان: مادة (وصل).

٣– فيض القدير: جـ/٣ ص ١٢٣.

في قوله: (حَتَّى السَّحَرِ) لئلا يتوهم السامع أن هذا الوصال ممتد ليشمل جميع الليل حتى يبلغ يومين أو أكثر ، وهو ما نهى عنه – ﷺ – ، ودفعًا لهذا الإيهام قال – ﷺ – : (فَأَيُّكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُوَاصِلَ، فَلْيُوَاصِلْ حَتَّى السَّحَرِ) ؛ رحمة بأصحابه وإشفاقًا عليهم. وإنما أطلق على الإمساك إلى السحر• وصالاً لمشابهته الوصال في الصورة ؛ لأن حقيقة الوصال هو أن يصل صوم يوم بصوم يوم آخر من غير أكل أو شرب بينهما. (١)

والمتأمل في هذا البيان النبوي يجد أنه قد حُذف متعلق الفعلين المضارعين في قوله: (لاَ تُوَاصِلُوا) ، وفي جملة (إذا) الشرطية في قوله: (إِذَا أَرَادَ أَنْ يُوَاصِلَ) والمحذوف هنا هو المفعول به وهو الصيام في كلا الفعلين ، والتقدير " لا تواصلوا الصيام " ، " وإذا أراد أن يواصل الصيام. " والسر البلاغي في هذا الحذف هو إفادة التعميم في المفعول به ، وكذا الاختصار والإيجاز في الكلام ، بمعنى: لا تواصلوا كل أنواع الصيام.

وحذف المفعول به لغرض التعميم مع الاختصار والإيجاز هو أحد الأغراض البلاغية التي ذكرها البلاغيون في حديثهم عن حذفه من الكلام. يقول الخطيب القزويني: " إن حذف المفعول به يكون للقصد إلى التعميم في المفعول والامتناع عن أن يقصره السامع على ما يذكر معه دون غيره مع الاختصار." (٢)

وهكذا جاءت جملة جواب (إذا) الشرطية في الحديث الشريف جملة طلبية بصيغة الفعل المضارع المقترن بلام الأمر (فَلْيُوَاصِلْ) ومجيء صدر جواب الشرط مقترنًا بـ(الفاء) الرابطة للجواب قد أضفى على كلامه – ﷺ – مزيدًا من الارتباط والإحكام.

فضائل الصيام وآدابه

الفرع الثالث: (إذا) فعل ماضي ، لا الناهية ، فعل مضارع مجزوم

ورد هذا النمط التعبيري في أحاديث كثيرة في الصحيحين ؛ وذلك لاتفاقه مع الاتجاه العام في الحديث الشريف ، إذ إن التراكيب التي فيها طلب غير مباشر تكون كثيرة ؛ لأنها تحمل أحكام الدين وتنقلها إلى المسلمين كأنها نصائح لا أوامر ، وهذه سمة التوجيه في التشريع الإسلامي. وهي أكثر انتشارًا من سمة الأمر والإلزام التي ترد في الأمور التي يناسبها

• السحر: آخر الليل قبيل الصبح ، وقيل: هو ثلث الليل الآخر إلى طلوع الفجر. يراجع اللسان: مادة (سحر).

١- ينظر: فتح الباري: جـ/٤ ص ٢٤١ ، عمدة القاري: جـ/١ ص ٧٣,

١- بغية الإيضاح ، للشيخ عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة ومطبعة صبيح: جـ/١ ص ١٧١,

ذلك ، ومن الأحاديث التي ورد فيها هذا التركيب ، ما جاء في بيان فضائل الصيام وآدابه ما رواه الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما ، عَن أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ –: " قَالَ اللَّهُ: كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ، إِلَّا الصِّيَامَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلاَ يَرْفُثْ وَلاَ يَصْخَبْ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ المِسْكِ لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا: إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ "[1]

يوضح هذا الحديث فضل الصيام عند الله – تعالى – وعلى صاحبه وعلى المجتمع ويبينن جزاء الصائم في الدنيا ، ويصف خلجات نفسه ومشاعره عند تمامه ، ولتحقيق كل هذه الأغراض استخدم الرسول – ﷺ – كثيرًا من الأساليب البلاغية التي اتسمت بالدقة والرقة والتناسق، من بينها أسلوب الشرط ، وهو من وسائل التشويق وبعث النشاط وإثارة الترقب لارتباط المقدمة فيه بالنتيجة وتبشيرها بها. وقد استخدم الرسول – ﷺ – أسلوب الشرط في هذا الحديث مرتين ؛ لتحقيق ذلك ولوضع الحلول المناسبة للمواقف المناسبة ؛ حتى لا يقع الصائم في خطأ يترتب عليه نقص ثوابه ، وقد استخدم أداة الشرط (إذا) مرة و(إن) مرة ، ولكل موقعها وأسرارها في التعبير ، من ذلك قوله: (وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلاَ يَرْفُثْ وَلاَ يَصْخَبْ) وهو يبين ما يجب أن يكون عليه الصائم من صفاء نفس وصلاح حال ، فلا يجب عليه أن ينساق وراء أي قاطع له عن اتصاله بربه ، ولا يرد السوء بالسوء ولا يخرج عن سكونه. وقد ربط الرسول – ﷺ – بأسلوب الشرط بين الكون في يوم الصيام وهو الشرط ، وبين ترك الرفث والصخب الذي هو الجزاء ؛ حتى لا يخرج الصائم عن حاله فيضيع هدف الصوم وتهذيب النفس ، واستخدام الرسول – ﷺ – لأداة الشرط (إذا) يشير إلى أن المؤمن كثير الصوم كثير التقرب إلى الله.

ولما كان الصيام على هذا النحو من الفضل العظيم ، وإبقاءً لما يكون عليه الصائم من صفاء النفس وصلاح الحال ، فإنه ينبغي عليه أن يصونه مما يفسده وينقص ثوابه ؛ ولذلك استخدم الرسول – ﷺ – أسلوب النهي في جواب الشرط ؛ تقويمًا لأخطاء الصائمين في إطار منع ما يمكن أن يخدش الصيام أو يفسده ، وقد ورد النهي فيما يضاد أخلاق الصائم ويؤثر على تحقيق الهدف من الصوم في قوله: (فَلاَ يَرْفُثْ وَلاَ يَصْخَبْ) ، " والرفث: الفحش ، ويطلق

٢– صحيح البخاري – كتاب الصوم – باب هل يقول إني صائم إذا شئتم؟ جـ/٢ ص ٢٦ حديث رقم: ١٩٠٤، وأخرجه مسلم في الصيام – باب فضل الصيام: رقم: ١١٥١,

على الجماع ومقدماته ، وعلى ذكره مع النساء ، ويحتمل أن يكون النهي عما هو أعم منها ، والصخب: الخصام والصياح ، وهو ينافي السكون والخشوع الذي يجب أن يتحلى به الصائم."[١]

هذا والنهي عام يشمل الصائم وغيره ، " فلا يفهم منه أن غير الصائم يباح له ما ذُكر وإنما المراد أن المنع من ذلك يتأكد بالصوم." [٢]

ويلحظ أن جواب الشرط مقترن بـ(الفاء) في قوله: (فَلاَ يَرْفُثْ) والفاء فيه للسببية ، وهو أحد معاني (الفاء) التي ذكرها ابن هشام. [٣] وعليه فالصيام يقي صاحبه من المعاصي ويمنعه من النار ، وهذا يقتضي من الصائم أن يصونه مما يفسده أو يضره ، وذلك بعدم الرفث والفحش، والبعد عن أفعال الجاهلية كالصخب والسفه والسخرية ونحو ذلك.

والنهي في جواب الشرط (فَلاَ يَرْفُثْ) للوجوب أي أنه يجب على الصائم ألا يرفث مطلقًا؛ حتى لا يفسد صومه ، كما يفيد النهي معنى النصح والإرشاد وهو المناسب لمقام الحديث، ويفيد – أيضًا – التأديب حيث ينهاهم الرسول – ﷺ – عن كل ما ينافي محاسن الأخلاق من الرفث والصخب ؛ ولذا فهو يدعوهم ضمنًا إلى محاسن الأخلاق ، " والدعوة إلى محاسن الأخلاق من معاني التأديب." [٤] وقد جاء التعبير النبوي في قوله: (يَرْفُثْ) كناية عن موصوف وهو الجماع ؛ لأن الجماع في نهار رمضان يفسد الصيام ويبطله ، وهذه الكناية تعكس حسن أدبه – ﷺ – وعفة لسانه ، كما يبرز تأثره – عليه السلام – المباشر بألفاظ القرآن الكريم أعني الآية الكريمة: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ... ﴾[٥]

وإيثاره – ﷺ – المضارع في قوله: (فَلاَ يَرْفُثْ وَلاَ يَصْخَبْ) فيه دلالة على التجدد والاستمرار ، أي أن نصيحته – ﷺ – للصائم باجتناب الرفث والبعد عن أفعال الجاهلية نصيحة متجددة ومستمرة لكل صائم سواء أكان صيامه فرضًا أم نفلاً ، وإلتزام الصائم بتلك النصيحة المستمرة المتجددة يؤدي إلى صيانة صيامه أبدًا مما لا يليق بحرمته. كما أن

١- عمدة القاري: جـ/٨ ص ٩ ، ٣٦,

٢- السابق: جـ/٨ ص,٩

٣- يراجع: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب : جـ/١ ص ١٤٠,

١- عمدة القاري: جـ/٨ ص ١١٥,

٢- البقرة: من الآية (١٩٧).

صياغتهما في صورة المضارعة فيه استحضار صورة الفعل حال تلبس الفاعل بـــه بغـــرض التنفير منه.

وكذلك يجب على الصائم إذا أراد أن يصون صيامه مما يفسده ويبطله أن يكون سلوكه حسنًا ولسانه عفًا حتى ولو تعرض للسباب واللعن والأذى من غيره فلا يســـبه أو يلعنـــه أو يعتدي عليه أي: " لا يعامله بمثل عمله بل يقتصر على قوله: إني صائم "[١] وهو ما قررتـــه الجملة الشرطية الثانية المعطوفة على الجملة الأولى والتي وضعها الرسول – ﷺ – علاجًـــا لموقف معين من التردي في الخطأ الذي ينقص أجر الصائم ، وذلك في قوله: (فَإِنْ سَابَّهُ أَحَـــدٌ أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ) ويتبين منها ما يجب أن يكون عليه الصائم من مقابلة الإساءة بكظم الغيظ والرد الحسن ، وتذكير نفسه بانقطاعه بالصيام إلى الله ، وتذكير لشاتمه بأنه فـــي حال وصال مع الله ، وفي هذا إظهار لقبح فعله بوضعه إزاء فعل الصائم ، إذ من المعروف أن الضد يظهر حسنه الضد ، وهو درس من دروس الصوم التي يهدف إلى غرسها في المؤمنين للتحكم في الشهوة الغضبية ، والسيطرة على النفس وكبح جماحها ، فلا يحملهم جهل جاهـــل على الخطأ.

واستخدام أداة الشرط (إنْ) في الجملة الثانية دون غيرها يوحي باستبعاد حصول فعـــل الشرط وهو الشتم والسباب ، وفيه إشارة إلى وجوب نقاء المجتمعات المســـلمة مـــن صـــور السباب والشتم ، وعليه فالجملة تنادي باستبعاد وقوع فعل الشرط بين المؤمنين ؛ ولـــذا فقـــد ناسب استخدام (إنْ) للمقام الذي يوحي ببعد حصول الشرط.

ويلحظ مراعاة النظير في الجمع بين المسابة والتقاتل في إطار فعـــل الشـــرط المبـــين لاحتمال وقوع الخطأ ، والذي وُضع من خلال جوابه كيفية التعامل ، وبيّن التصـــرف الســـليم وقاية للصائم ، وذلك من خلال مجيء جواب الشرط جملة طلبية بصيغة المضارع المقترن بلام الأمر (فَلْيَقُلْ إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ) ؛ " لأن الصائم مأمور بأن يكف نفسه عن ذلك فكيف يقع ذلـــك منه؟! "[٢]

وصياغة الفعلين على صيغة المفاعلة (سابه – قاتله) دلالة على المشاركة فـــي الاثـــم بالاشتراك في الفعل ؛ لأنه من الأفعال التي تقع بين اثنين أو أكثر تحذيرًا من مجاراة الساب أو الشاتم.

٣- فتح الباري: جـــ/٤ ص ,١٢٦

١- فتح الباري: جـــ/٤ ص ,١٢٧

وعليه فإن من الممكن أن يؤدي ذلك السلوك الحسن من الصائم إلى كف هذا المخاطب عنه وانزجاره عن مقاتلته أو مشاتمته.

وهكذا بينت جملة (إذا) الشرطية وجوابها الجملة الطلبية العلاج الناجع لكل ما من شأنه أن يفسد الصوم أو ينقصه من الرفث والصخب والمشاركة في السباب والقتال ؛ لأن الصوم يقوم على تهذيب النفس وحبسها عن الشهوات ، ومن ثم فقد تبين لنا أن أعظم أثر من آثار الصيام هو كسر الشهوة ومقاومة الانحرافات ، وهو ما قررته جملة (إذا) الشرطية ، وأفصحت عنه البلاغة النبوية على صاحبها أفضل الصلوات وأتم التسليمات.

الفصل الثاني: (إذا) وجملة فعل الشرط بلفظ المضارع

ذكر ابن هشام أن هذا النمط قليلاً ما يرد [١] في الجملة الشرطية المصدرة بـــ(إذا)، وهو مُحِق إذ إن الفعل المضارع لم يرد بعد (إذا) في الصحيحين إلا في ثلاثة مواضع ، وحتى في هذه المواضع لم يكن الفعل المضارع خالصًا ، بل هو مسبوق بلم الجازمة التي تقلب دلالته وزمنه إلى الماضي. [٢]

وبالنظر في هذه الأحاديث الثلاثة وجدنا أن جواب الشرط فيها جاء على صورتين: صورة الماضي في موضعين ، وصورة الأمر في موضع واحد ؛ ولذا فإن هذا النمط يحتوي على مبحثين :

المبحث الأول: (إذا) وجملة الشرط فعل مضارع ، وجملة الجواب فعل ماضي.

المبحث الثاني: (إذا) وجملة الشرط فعل مضارع ، وجملة الجواب فعل أمر.

خطر غياب العلماء

المبحث الأول:

(إذا) وجملة الشرط فعل مضارع ، وجملة الجواب فعل ماضي

ورد هذا النمط التعبيري لـــ(إذا) الشرطية في موضعين فقط في الصحيحين ومنه ما جاء في بيان خطر غياب العلماء ، وذلك في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»[٣]

يبين الرسول – ﷺ – في هذا الحديث فضل العلم ومنزلة العلماء ، وخطر غيابهم وتصدر الجهلاء للفتوى ، وضلالهم وإضلالهم ، وذهابهم بسفينة المجتمع إلى غير شاطئ.

١- مغني اللبيب: جـ/١ ص ٩٧,

٢- السابق: جـ/١ ص ٣٠٧,

٣- صحيح البخاري – كتاب العلم – باب كيف يقبض العلم – حديث رقم: ١٠٠ ، وأخرجه مسلم في كتاب العلم باب رفع العلم وقبضه حديث رقم : ٢٦٧٣,

وقد كشفت الجملة الشرطية النبوية بتراكيبها البلاغية الفريدة عن الأثر الناتج عن غياب العلماء من الضلال والهلاك ، وذلك في قوله: (حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا) فـ(حتى) في العبارة تحكي حدوث القبض درجة درجة ، وكأن هذا القبض قد صار شبحًا يطارد أطياف النور حتى يترك الأرض ظلامًا يتخبط أهلها في الجهل يلتمسون قائدًا ، قد لا يجدون إلا أعمى يقود بصيرًا إلى هاوية وسوء مصير.

ويلحظ أن الجملة الشرطية في الحديث قد وردت بأداة الشرط (إذا) التي تدل على القطع بوقوع الشرط ، كما جاء فعلا الشرط وجوابه على نمط آخر غير الأنماط السابقة ، حيث ورد فعل الشرط بصيغة المضارع المجزوم بـ(لم) وهي: أداة نفي وجزم وقلب ، تقلب الفعل المضارع ماضيًا ، بيد أن دخول (إذا) التي للاستقبال قد أحدث توازنًا أبقى الفعل المضارع على أصله. يقول الإمام العيني: " فإن قلت: (إذا) للاستقبال و(لم) لقلب المضارع ماضيًا ، فكيف يجتمعان؟ قلت: إذا كانت شرطية يلزم من انتفاء المشروط انتفاء الشرط ، ومن وجود المشروط وجود الشرط ، لكنه ليس كذلك لجواز حصول الاتخاذ مع وجود العالم. أو يكون المراد بالناس جميعهم، فلا يصلح أن الكل اتخذوا رؤسًا جهالاً إلا عند عدم بقاء العالم مطلقًا ، وذلك ظاهر."[١]

هذا وقد جاءت كلمة (عَالِمًا) مفعول فعل الشرط نكرة في سياق النفي (إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا) وذلك لإفادة العموم ، والمبالغة في انتفاء العلم وغياب العلماء ، ومجيء جواب الشرط بلفظ الماضي (اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا) ؛ لإفادة تحقق وقوع الفعل من الجميع ، وهو اتخاذ الرؤس الجهال ، وهو ما دل عليه مجيء كلمة (النَّاسُ) وفيه إشارة إلى انتشار الجهل ؛ ولذا فقد آثر البيان النبوي مجيء كلمة (رُءُوسًا) جمعًا ؛ ليؤكد هذا الشمول – شمول الفعل – (اتَّخَذَ النَّاسُ...) وانتشار الجهل. وكذلك وردت كلمة (جُهَّالًا) جمع جاهل على وزن (فاعل) ؛ لإفادة الثبوت والدوام. ومن ثم فإنه يترتب على هذا الفعل وهو اتخاذ الجهال السؤال فالفتوى بغير علم فالضلال: (فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا).

وعليه فقد عطف السؤال (فَسُئِلُوا...) على جملة جواب الشرط (اتَّخَذَ النَّاسُ...) ورتب فيه المعطوف على المعطوف عليه دون مهلة ، وفيه تأكيد الاندفاع وعدم التروي في اختيار الشخص المستفتي ، مما يجعل الخطأ في الفعل مشتركًا بين المفتي والمستفتي ، وبين الناس

١- عمدة القاري: جـ/ ٢ ص ١٨٤ .

ورؤسهم. والعطف – أيضًا – بـــ(الفاء) في قوله: (فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ) يدل على تسارع الأحداث وتلاحقها ، وينادي بجرأة هؤلاء ويؤكد جهلهم الذي جعلهم يفتون دون تروٍ ، ويقودون الناس إلى غير طريق ؛ لأنهم يسيرون على غير هدى. ومن ثم فقد جاء قوله: (بِغَيْرِ عِلْمٍ) من بـــاب الإيغال الذي يفيد تأكيد جهلهم ؛ لأن قوله: (اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا) يفيد أن فتواهم مبنيـــة على الجهل وخالية من العلم ، وجاء قوله (بِغَيْرِ عِلْمٍ) ؛ ليؤكد أنهم ليسوا أهلاً للفتوى وهـــذا يدل على ضلالهم، وضلال من يفتونهم ، ويرصد لجملة الختام وهي الضلال والإضلال: (فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا) أي: ضلوا في أنفسهم وأضلوا السائلين ، قال الإمام العيني: " فإن قلت: الضلال متقدم على الإفتاء ، وإن كان الجزء الأول مقدمًا عليه ، إذ الضلال الذي بعد الإفتاء غيـــر الضـــلال الذي قبله. فإن قلت: الإضلال ظاهر ، وأما الضلال فإنما يلزم لو عمل بما أفتى ، وقد لا يعمل به. قلت: إن إضلاله للغير ضلال له عمل بما أفتى أو لم يعمل." [١]

وعلى ذلك فالضلال ملازم لهم مما يؤكد سوء عاقبة الجميع. قال الســـيرافي: " الفـــاء التي للعطف من شأنها أن يكون المعنى الذي اشترك فيه المعطوف والمعطوف عليه حاصـــلاً للمعطوف بعد حصوله للمعطوف عليه بلا مهلة فصل ، ويكون حصوله للثاني عقيب حصـــوله للأول نحو قولك: زيد آتيك فمحدثك ، أي: يحصل الحديث من قبله بعد إتيانه بلا فصل." [٢]

وعلى ذلك فإن تتابع الفاءات في قوله – ﷺ –: (فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْـــرِ عِلْـــمٍ، فَضَـــلُّوا وَأَضَلُّوا) يفيد عدة دلالات منها:

– التسرع وعدم التروي في اختيار من يُستفتى.

– وحدة العاقبة والمصير للمفتى والمستفتي ؛ حيث إن كليهما في الضلال.

– شمول العقاب إذ لا يتوقف ضرر غياب العلماء ، وترؤس الجهال على فرد دون فرد بل يشمل المجموع. يفهم ذلك من اتصال واو الجماعة بالأفعال الأربعة (فَسُئِلُوا فَـــأَفْتَوْا بِغَيْـــرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا).

– سرعة العقاب ؛ لأن حاجة الناس للمعرفة لا تقتصر على أمور الدين بل يحتـــاجون لمن يرشدهم ويفتيهم في أمور دنياهم مما يعّجل بالهلاك ويشل حركة الحياة.

وهكذا فإن جملة (إذا) الشرطية بتركيبها البلاغي الفريد قد أبانت عن بلاغة الرسول – ﷺ – في تقويم خطأ الفتوى ، والتأكيد على حقيقة غابت عن الناس ، وهي أن ذهـــاب العلـــم

١– عمدة القاري: جـــ/٢ ص ١٨٥ .

٢– شرح أبيات سيبويه للسيرافي: جـــ/١ ص ١٠٠ – طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب.

وعموم الجهل مفضٍ للهلاك المترتب على غياب العلماء ، واتخاذ رؤس جهال يتصدرون للفتوى فيقودون المجتمعات إلى هلاك محقق.

خطر انتفاء الحياء

المبحث الثاني:

(إذا) وجملة الشرط فعل مضارع ، وجملة الجواب فعل أمر

ورد هذا النمط التعبيري بـ(إذا) الشرطية في موضع واحد في صحيح البخاري ، وذلك في مقام التحذير من انتفاء خلق الحياء ، عن أَبِي مَسْعُودٍ عُقْبَةُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلاَمِ النُّبُوَّةِ، إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ» [١]

هذا البيان النبوي من جوامع كلمه – ﷺ – وهو من النصائح الغوالي التي كان يتعهد بها أصحابه ؛ فقد جمع كل ما يدور عليه الدين الحنيف من أوامر ونواهٍ مندرجة تحت الحلال والحرام ، والمندوب والمكروه ، بل وما فيه شبهة فيما وزنته بميزانك الدقيق الحساس – ميزان الحياء – جمع كل هذا بعبارة فصيحة قوية موجزة صارت مثلاً ، ألا وهي جملة الشرط ، في قوله – ﷺ –: (إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ) ، وقد بينت الجملة الشرطية أن الذي يكف الإنسان عن مواقعة الشر هو الحياء ، فإذا تركه صار كالمأمور بارتكاب كل شر. والمعنى: إذا نزع منك الحياء فافعل كل ما شئت مما تدعو إليه النفس الأمارة بالسوء ، فإن الله يجازيك عليه ، وهذا المعنى واللفظ الذي احتواه بعض ما اتفق عليه شرائع النبوة سابقًا ولاحقًا ولم ينسخ لصوابه واتفاق العقول عليه.[٢]

ويلحظ أن النبي – ﷺ – قد مهّد لجملة (إذا) الشرطية بالإبهام الذي يعقبه التوضيح ، وذلك في قوله: (إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ) حيث أبهم معيار الحياء الذي به يزن الإنسان صنعه بينه وبين نفسه ، أولاً في ضمير الشأن أو القصة أي: إنه مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى ؛ ليشتاق السامعون إلى معرفة هذه القصة ، ثم وضحه بقوله: (مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلاَمِ النُّبُوَّةِ) ليعلم السامعون أن هذه الأمور مما أثر عن الأنبياء السابقين ؛ فيزدادوا تلهفًا على

١- صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء – باب حديث الغار: جـ٤ ص ١٧٧ رقم: ٣٤٨٤,

٢- المنهل العذب الفرات في شرح الأحاديث الأمهات ، د/ عبد العال ، جـ/٤ ص ٧٣ – بتصرف.

معرفة ذلك الأمر ؛ لأنه مما يتعلق بأمور دينهم ، ثم زاده توضيحًا بأن هذا الأمر إنما هو (إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ) ففي هذا التدرج في الإيضاح بعد الإبهام ما يزيد المعاني ثباتًا في النفس ورسوخًا في الأذهان. وهو – الإيضاح بعد الإبهام – من المعايير التي يلجأ إليها المصطفى – ﷺ – لتثبيت المعاني المهمة في نفوس أصحابه وتمكين النصائح الغالية في قلوبهم.

ويلحظ أن الجملة الشرطية قد وردت بأداة الشرط (إذا) التي تفيد تحقيق الخبر والقطع بوقوع الشرط ، كما ورد فعل الشرط بلفظ المضارع المعتل الآخر والمسبوق بـ(لم) الجازمة التي تقلب المضارع ماضيًا ، لكن دخول (إذا) التي للاستقبال أحدث توازنًا أبقى المضارع على أصله.

هذا وقد رُوي الحديث برواية أخرى في فعل الشرط: (إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ) بياء في آخره. وهي موافقة للغة من لغات العرب ، فللعرب في هذه اللفظة لغتان: يقال: " استحي " بياء واحدة واستحيا فلان يستحيي بياءين ، وقرئ باللغتين في قوله – تعالى – : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا ... ﴾[1] ، وإن كان الأزهري وابن منظور ذكرا أن القرآن جاء باللغة الثانية فقط أو التامة ، وذكر ابن الأثير أن اللغة الثانية أعلى وأكثر ، ومعنى هذا أن رواية (إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ) أكثر وأعلى من (إِذَا لَمْ تَسْتَحِ) " ولم يذكر الفيروز آبادي إلا اللغة الثانية فقط."[2]

والمعنى المراد من الحديث أن من لم يستح صنع ما شاء ؛ لأنه لا يكون حياء يحجزه عن الفواحش فيتهافت عليها ولا يتوقاها ؛ ولذا فإن الرواية الأعلى وهي بإثبات الياء (لَمْ تَسْتَحْيِ) هي المناسبة للمعنى ؛ لأن من لم يكن له حياء يحجزه عن الفواحش فإنه يتهافت عليها وينزلق فيها ويمتد إليها كامتداد (الياء) وحركة صوتها ، فإنه يدل على الامتداد الذي لا يحجزه حاجز ، كما أن الزيادة في المبني دلالة على الزيادة في المعنى. فانظر إلى البلاغة النبوية وإعجازها البياني في تحقيق التناسب بين حروف فعل الشرط (تستحي) وبين معناه ، وفيه – أيضًا – إشارة إلى المعنى المراد من الأمر الواقع في جواب الشرط: (فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ) ، فإنه يحمل معنى التهديد والوعيد ، والمعنى: إذا نزع منك الحياء فافعل ما شئت فإن الله مجازيك عليه. وفيه – أيضًا – إشارة إلى تعظيم الحياء ، وقيل: إن الأمر يحمل معنى الإباحة

١– البقرة: من الآية (٢٦).

٢– القاموس المحيط ، للفيروز آبادي – مادة (حيي): مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، ط. الثانية – ١٩٥٣م.

أي: إذا أردت فعل شيء ، فإن كان مما لا تستحي إذا فعلته من الله ولا من الناس فافعله وإلا فلا. وقيل: هو أمر بمعنى الخبر ، أي: من لا يستحي يصنع ما أراد. [١]

والذي أراه: أن المناسب للمقام والسياق لمعنى الأمر هو التهديد والوعيد وأنه الأبلغ ؛ لما فيه من الحث على التمسك بخلق الحياء ، والوعيد لمن يفرط فيه ، ولموافقته المعنى المراد من الرواية الثانية (لم تستحي) وكما ورد الحديث بروايتين في فعل الشرط ، ورد – أيضًا – برواتين في جواب الشرط فقد ورد (فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ) وورد (فَافْعَلْ مَا شِئْتَ) [٢] ، وثمة فرق بينهما ، فالصنع يكون من الإنسان دون غيره ، ويكون بإجادة وعن ترتيب وإحكام ، وأما الفعل فهو أعم ، إذ يكون من الإنسان والحيوان والجماد ، ويكون بإجادة وبدونها ، ويكون بقصد وبلا قصد. [٣] وعلى هذا فإن أريد من لفظ (اصنع) مجرد العمل جاز أن يفهم التهديد والوعيد ، ويفهم الخير ، في حين إذا أريد القصد والإجادة فيرجح معنى الإباحة دون التهديد أو الخير ؛ إذ لا يخطر ببالٍ أن النبي – ﷺ – يتهدد من يجيد في عمله ، أو أنه يبني الجودة في العمل على عدم الحياء ، وإنما يصح أو يتأكد أنه ينصح بالقصد إلى الأعمال والإجادة فيها عندما لا يكون فيها ما يستحي منه.

ومن ثم فالتعبير النبوي بجملة (إذا) الشرطية (إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ) تعبير رقيق شفاف يصلح لمعنيين كليهما مفيد إفادة عظيمة:

أولهما: إذا لم يكن فعلك مما يستحيا منه فاصنع ما شئت ؛ أي: فلا ذنب عليك ، فالأمر للإباحة.

وثانيهما: إذا كنت لا تستحي من الله – تعالى – فاصنع ما شئت ؛ فالأمر بهذا المعنى يكون للتهديد ، وهو أدخل في بلاغة الجملة الشرطية النبوية وقوة إبانتها ، فكأنه – ﷺ – يأمره أن يفعل ما يشاء من أنواع الشرور وألوان المعاصي ؛ ليوقع به أفانين العذاب وضروب الإيذاء. ومما يزيد في بلاغة الجملة الشرطية مناسبة أولها (إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ) لما ذكر في آخرها وهو الإباحة بصنع أي شيء ، أو التهديد بصنع أي شيء وهو ما يعرف عند البلاغيين بتشابه

٣- يراجع: الكواكب الدراري للكرماني: جـ/٤ ص ١٠٩ ، وفتح الباري: جـ/١٠ ص ٥٢٣ ، وعمدة القاري: جـ/١٨ ص ٢١٢,

١- صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء – باب حديث الغار: جـ٤ ص ١٧٧ رقم: ٣٤٨٣,

٢- وينظر: لسان العرب : مادة (صنع ، فعل).

الأطراف ، إحدى المحسنات البديعية ، ويعرف بختم الكلام بما يناسب أوله في المعنى [١] ، وكذلك اقتران جواب الشرط بـ(الفاء) (فاصنع) والتي تدل على التعقيب والسرعة ، وكأن من ليس عنده حياء فإنه يسارع في اقتراف المحرمات ويتهافت على فعل الفواحش ، كما تفيد معنى السببية ، فإن من يفعل المعاضي مسبب عن عدم حيائه ، فالمسلم الذي يظهر عليه الخجل والإنكسار عند ذكر القبيح ؛ خوفًا مما يُعاب عليه لا يفعل الشر أصلاً ، ولا يرتكب معصية أبدًا؛ لأنه إذا خطر بباله فعل الفاحشة يمنعه حياؤه من ارتكابها ، وإذا عابه أحد يمنعه الحياء من مقابلة السيئة بمثلها. وهكذا هو في جميع الأحوال ، يصير الحياء حاجزًا له عن الضرر والإيذاء، جالبًا كل خير وثناء ، فما أحسن الحياء !.

٣- ينظر: التبيان في علم المعاني والبديع والبيان للطيبي : ص ,٣٤٩

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وبحوله وطوله تقضى الحاجات ، وبعونه ومدده تذلل العقبات ، والصلاة والسلام على خير البريات ، سيدنا محمد عليه الصلوات والتسليمات ، وعلى آله وصحبه السابقين بالخيرات.

وبعد:

فأرجو وآمل من المولى – سبحانه – أن أكون قد وفقت في معالجة تلكم الدراسة البلاغية لجملة (إذا) الشرطية في الصحيحين – من خلال الوقوف على أنماطها التعبيرية – محللاً وكاشفًا عن لمحات من أسرارها البلاغية ويطيب لي بعد أن فرغت بفضل الله من السياحة في آفاقها واستكناه أسرارها أن أسجل هنا أبرز النتائج التي استخلصتها من هذه الدراسة ، وهي كما يلي:

(١) تنطق جملة (إذا) الشرطية بدور الشرط في الحديث الشريف ، وسبب احتفاله به – لا سيما جملة (إذا) الشرطية – ، ولعل مرجع ذلك ومرده إلى طبيعة الحديث الشريف ووظيفته ، فالرسول – ﷺ – لم يكن في أكثر الأحيان يوجه الأمر توجيهًا مباشرًا إلى الفرد المسلم أن يفعل كذا أو يبتعد عن كذا ، إنما كان يوضح الحقيقة المجردة ويبين الحكم العام ؛ لكي يتيح للإنسان حرية الرأي واستقرار التفكير ليُسأل كل فرد عن عمله ، ويتحمل كل امرئ مسئوليته. وأسلوب الشرط أكثر الأساليب التي تساعد على ذلك.

(٢) جاء الفعل الماضي بعد (إذا) الشرطية ملائمًا لمقامها ؛ لدلالته على تحقق الوقوع وتيقن الحدوث ، ولدلالتها على القطع بوقوع الشرط ؛ ولذا غلب دخولها على لفظ الماضى ، وقل دخولها على المضارع ؛ لأنها أنسب بالجزم بالوقوع.

(٣) كان أشيع الأنماط التعبيرية بـ(إذا) الشرطية ورودًا في الصحيحين هو مجيء جملتي الشرط وجوابه بلفظ الماضي ، ويليه مجيء جملة الشرط بلفظ الماضي وجوابه جملة طلبية ، وأقل الأنماط هو مجيء جملة الشرط بلفظ المضارع.

(٤) بعد عرض صورة (إذا) في الحديث الشريف مع الماضي والمضارع أحسب أن ما ذهب إليه ابن هشام في قوله: " ويكون الفعل بعدها ماضيًا كثيرًا ومضارعًا دون ذلك "[١] لا يصور الواقع بدقة ؛ إذ إن ورودها ثلاث مرات مع المضارع في مقابل ما يزيد على ثلاثمائة

١- مغني اللبيب لابن هشام: ص ٩٧.

مرة مع الماضي في الصحيحين تجعل المقارنة بينهما – على مستوى درجة التواتر – كالمقارنة بين كثير مستفيض ونادر مستغيض.

(٥) ورد الفعل الماضي المبني للمجهول في شرط (إذا) وفي جوابها كثيرًا ؛ وذلك لتحقيق المراد بأوجز عبارة وأخصر طريق.

(٦) كثرت الجملة الطلبية في جواب (إذا) الشرطية ، وهذا يفصح عن الاتفاق مع خصائص الحديث الشريف ، واتجاهه العام ؛ لكثرة التراكيب التي تحمل طلبًا غير مباشر ممثلة في أحكام الدين في صورة نصائح لا أوامر فتقع في قلوب المسلمين ؛ ولذا فهي أكثر انتشارًا من سمة الأمر والإلزام التي ترد في الأمور التي يناسبها ذلك ، وتلك من خصائص البلاغة النبوية.

(٧) كان لـ(إذا) الشرطية أثر نفسي في المستمع من خلال تراكيبها وأنماطها في البيان النبوي ، حيث حققت نوعًا من إدخال السرور على المخاطب ، وذلك بحثه على تحقيق ما يرغب في وقوعه ، وإبرازه له في معرض الحاصل.

(٨) جاءت (إذا) الشرطية في البيان النبوي وسيلة من وسائل التعليم والتقويم للأخطاء ، والإسراع في علاجها ؛ وذلك باقتران جوابها بـ(الفاء) التي تفيد الترتيب والتعقيب والسرعة.

(٩) خالفت (إذا) الشرطية في الحديث الشريف أصل الاستعمال كثيرًا – وهو مجيئها للاستقبال – حيث جاء بعدها الشرط والجزاء بلفظ الماضي ؛ وذلك لنكتة بلاغية ، وهي إبراز ما لم يحصل باللفظ الدال على المعنى الحاصل بالفعل لإظهار الرغبة في حصوله.

(١٠) جاءت (إذا) والفعل الماضي في الأمور غير المقطوع بها ، وذلك تفاؤلاً بحصوله وإظهارًا للرغبة في وقوعه.

(١١) كشفت الدراسة عن أكثر من موضع جاءت فيه (إذا) في موقع (إن) في الصحيحين، وهذا يجعلنا لا نسلم بما ذهب إليه البلاغيون من ندرة وقوع (إذا) موقع (إن) في مقام الشك.

وفي الختام أتوجه إلى الحق – سبحانه – أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه ، وأن ينفع به بقدر ما بذل فيه ، إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير ، وهو حسبنا ، نعم المولى ونعم النصير.

الباحث

د/ سرحان حسن سرحان محمد

المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانيًا: المصادر والمراجع الأخرى:

١. أسرار البلاغة ، الإمام عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق: هـ ريتر ، دار المسيرة. بيروت، الطبعة الثانية ، ١٩٧٩م.

٢. أساس البلاغة ، الزمخشري ، طبعة ثالثة/ ١٩٨٥م ، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٣. الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم ، العصام الإسفراييني ، تحقيق: د. عبد الحميد الهنداوي ، طبعة أولى ، ١٤٢٢ هـ ٢٠٠١م ، ط. دار الكتب العلمية ، بيروت.

٤. الإيضاح في علوم البلاغة ، الخطيب القزويني ، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي ، طبعة ثالثة ، ط. دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٣٩١ هـ ١٩٧١م.

٥. بغية الإيضاح للشيخ عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة ومطبعة محمد على صبيح.

٦. البرهان في علوم القرآن ، الإمام الزركشي ، تحقيق: محمد أبو الفضل ، ط الثالثة ، دار المعرفة.

٧. تأملات في البيان النبوي ، د. إبراهيم عوضين ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

٨. التبان في علم المعاني والبديع والبيان ، الطيبي ، تحقيق: هادي عطية مطر هلالي ، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧م ، ط. عالم الكتاب ، بيروت ، لبنان.

٩. جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم ، لابن رجب الحنبلي ، تحقيق: د/ محمد بكر إسماعيل ، طبعة مصطفى الحلبي ، مكتبة دار إحياء الكتب العلمية ، ١٣٣٦هـ ١٩١٨م.

١٠. الحديث النبوي من الوجهة البلاغية ، د. عز الدين على السيد ، طبعة أولى ، ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م ، ط. دار اقرأ ، بيروت.

١١. حاشية السندي على صحيح البخاري وتقريراتها من شرح القسطلاني وشيخ الإسلام ، ط. مكتبة الثقافة الدينية.

١٢. خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ، د. عبد العظيم المطعني ، طبعة مكتبة وهبة، الطبعة الأولى ، ١٤١٣ هـ ١٩٩٣م.

١٣. دلائل الإعجاز ، الإمام عبد القاهر الجرجاني ، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة.

١٤. دليل الفالحين ، محمد بن علان ، دار الريان للتراث ، طبعة أولى، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

١٥. شرح صحيح مسلم ، الإمام النووي ، تحقيق: طه عبد الرؤف سعد ، المكتبة التوفيقية.

١٦. شرح شذور الذهب فى معرفة كلام العرب ، ابن هشام الأنصاري ، ومعه شذرات على شذور الذهب ، تحقيق: عبد المتعال الصعيدى ، مطبعة على صبيح ، ١٣٨٥ هـ ١٩٦٦م.

١٧. شرح أحاديث من صحيح البخاري ، د. محمد محمد أبو موسى ، طبعة أولى / ١٤١٢هـ ٢٠٠١ م ، ط. مكتبة وهبة.

١٨. شرح أبيات سيبويه ، السيرافي ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٩. صحيح البخاري ، تحقيق وترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي ، ط. دار المنار.

٢٠. صحيح مسلم ، تحقيق وترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي ، ط. دار إحياء التراث العربي ، ١٣٧٤ هـ ١٩٥٥م.

٢١. عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، الإمام بدر الدين العيني ، مراجعة: صدقي جميل العطار ، طبعة أولى ١٤١٨ هـ ١٩٩٨ م ، ط. دار الفكر.

٢٢. فتح الباري شرح صحيح البخاري ، الإمام ابن حجر العسقلاني ، (ت: ٨٥٢ هـ) ، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد ، طبعة أولى / ١٤١٢ هـ ١٩٩٢ م ، ط. دار الغد العربي.

٢٣. فيض القدير في شرح الجامع الصغير ، العلامة المناوي ، مطبعة دار المعرفة.

٢٤. القاموس المحيط ، أبو يعقوب الفيروز آبادي ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، ط. الثانية، ١٣٧١ هـ ١٩٥٣ م.

٢٥. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل ، الإمام الزمخشري ، مكتبة البابي الحلبي ، الطبعة الأخيرة ، ١٣٩٢ هـ ، ١٩٧٢م.

٢٦. الكواكب الدراري شرح صحيح البخاري ، الإمام الكرماني ، طبعة أولى / ١٤٠٤ هـ، المكتبة السلفية.

٢٧. لسان العرب ، جمال الدين ابن منظور ، تحقيق الأساتذة : عبد الله الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي ، طبعة دار المعارف.

٢٨. المجازات النبوية ، الشريف الراضي ، تحقيق: طه محمد الزيني ، طبعة مؤسسة الحلبي، القاهرة.

٢٩. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، ابن هشام الأنصاري ، (ت: ٧٦١ هـ) ، تحقيق: د/ مازن المبارك ومحمد على حمد الله ، الطبعة السادسة ، ط. دار الفكر ، بيروت ، ١٩٨٥م.

٣٠. المقتصد في شرح الإيضاح ، الإمام عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق: د/ كاظم بحر المرجان ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، الجمهورية العراقية ، ١٩٨٢م.

٣١. المنهل العذب الفرات في شرح الأحاديث الأمهات ، د/ عبد العال أحمد عبد العال ، ط. أولى ، ١٤١٠هـ ١٩٩٠ م ، المكتبة الأزهرية ل